قرطبة .. جوهرة العالم

الكتاب : **قرطبة .. جوهرة العالم**
الكاتب : **على القاضي**
الطبعة : ٢٠١٨

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.com **http://www.apatop.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

القاضي ، علي
قرطبة جوهرة العالم – على القاضي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٨
٦٣ ص ، ١٨ سم .
أ. العنوان **رقم الإيداع / ١١٢٣٠ / ٢٠١٧**

قرطبة .. جوهرة العالم

علي القاضي





مقدمة

الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبريا "أسبانيا والبرتغال" والتي سميت بعد ذلك بالأندلس كانت فرصة اهلت المسلمين لاكتشاف كثير من الأشياء التي لم تكن معروفة من قبل.

لقد كان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بعثا جديداً للإنسانية كلها، ولقد ربى أصحابه تربية إسلامية كاملة متكاملة.

ولذلك فإنهم حملوا الأمانة وبلغوا الرسالة وغيروا الموازين الدولية وطوروا الأوضاع الاجتماعية في كل الدول التي فتحوها.

نعم لقد خرجت القوة المؤمنة الجديدة تحمل راية الله تعالى وتتابعت انتصاراتها الباهرة ولم يشهد التاريخ انتصارات مظفرة مثلما شهد في انتصارات الفتوح الإسلامية.

لقد افتتح عمرو بن العاص مصر وأدخها في الدولة الإسلامية الجديدة وسار عقبة بن نافع الفهري يفتح شمال إفريقيا حتى وصل إلى المحيط الأطلسي الذي كان يعرف في ذلك الوقت ببحر الظلمات، وأشهد الله تعالى على أنه لو كان يعلم أن وراء هذه الظلمات أرضاً أخرى لما وقف شئ دون غايته وأمانيه، وبينما كانت جيوش المسلمين تفتح سمرقند والهند في الشرق سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، كانت جيوش طارق بن زياد تدق أبواب أسبانيا في الغرب، وانتصرت على جيش لذريق آخر ملوك القوط في موقعة "وادي لكة " وكانت معركة حاسمة فتحت الأندلس أمام المسلمين والعرب في ذلك الوقت كانوا يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارات الشعوب الأخرى وكانوا في التماسك النفسي والخلقي بحيث لم يقف دونهم شئ، ولذلك انساب الفتح الإسلامي في شبه الجزيرة العربية كالسيل الدافق آسيا وأفريقيا ووثب

منها إلى أسبانيا والبرتغال.

نعم لقد فتح العرب تلك البلاد وقلوبهم يصفيها الإسلام والإيمان يدفعهم إلى نشر دينهم وإعلاء كلمته.

وكانوا يحملون معهم تراثاً حضارياً لم تعرفه الجزيرة الأيبرية من قبل ودارت تلك لبلاد في فلك الإسلام يبث فيها من حضارته ما أثر في كيانها تأثيرا قوياً تناول شتى نواحي الحياة.

وقد أنتجت العبقرية الإسلامية في أسبانيا والبرتغال في أعوام قليلة الكثير في النواحي الحضارية من جميع نواحيها.

وقد قضى الإسلام في هذه البلادعلى الأوضاع السيئة التي كانت قبل الفتح، فلم يعج هناك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة، وزال سلطان الكنيسة وانتهت عبودية الأرض والرقيق وتحرر كل من دخل في الإسلام.

وأصبحت القيم والتعاليم الإسلامية وهى تقوم على العقيدة والإيمان والالتزام مثلا متحركة تشاهد عبانا وتسر الناظرين.

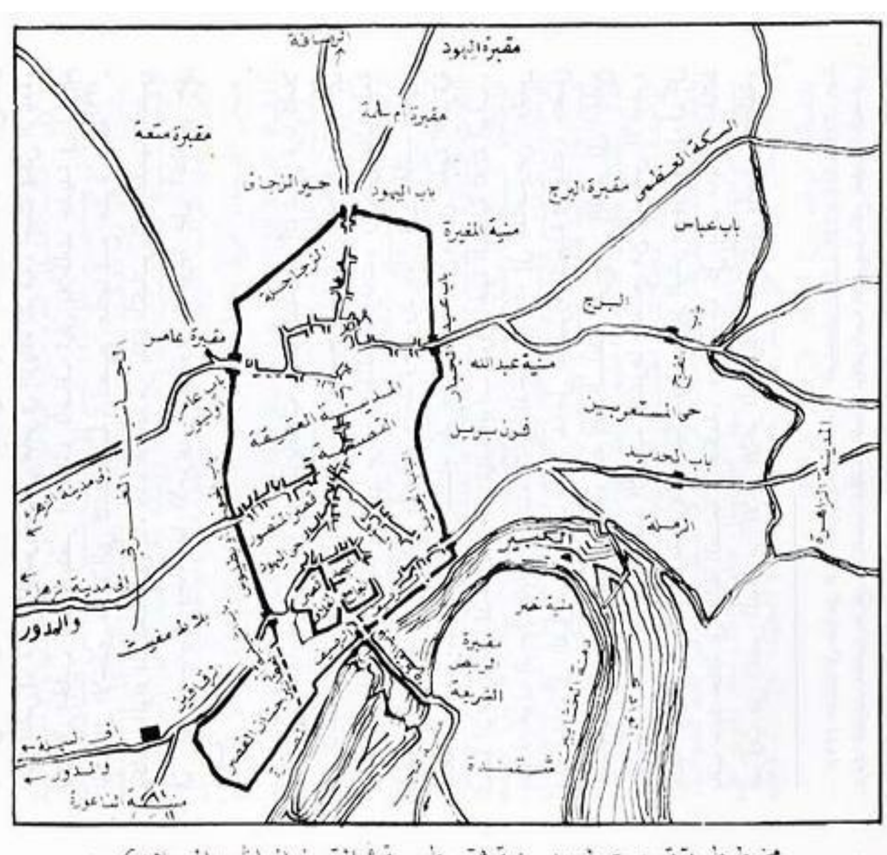
ولذلك فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً وأصبح المسلمون أغلبية كبيرة في الأندلس وأكثرهم من سكان الأندلس الأصليين.

شبه جزيرة ليبريا: كان الرومان يحكمون شبه جزيرة ليبريا منذ فترات طويلة وكان يحكم شبه الجزبرة رجل اغتصب الملك من أهله فذهب البطريك المخلوع إلى الأمير المسلم طارق بن زياد واتفق معه على فتح الجزيرة وتأهب طارق لفتح الجزيرة تابعة وسار إلى فتحها ولحق به موسى بن نصير وسار في طريق آخر، وتم فتحها وأصبحت الجزيرة تابعة لوالي أفريقيا وكان أول وال تولى السلطة بعد الفتح الإسلامي عبد العزيز بن موسى بن نصير وكان يعاصر جبل العرب من الفاتحين الأسبان الذين دخلوا في الإسلام وكانوا يسمون العرب المسالمة والذين بقوا على دينهم من النصارى كانوا يعرفون بالعجم وكان لهم رئيس يسمى بالنوس، وكانوا أهل الذمة في أمن على أنفسهم وأموالهم لا يتعرض لهم أحد بسوء ولا يكرهون على الدخول في

الإسلام، والذين ولودا من آباء مسلمين ونشؤوا على الإسلام كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من السكان والمستعربون هم نصارى الأندلس الذين عاشروا العرب وتعربوا وأقاموا في ديار الإسلام وكان السواد الأعظم من المستعمرين يقيمون في قرطبة واشبيلية وطليطة.

اليهود: لقد وجد يهود أسبانيا والبرتغال في رحاب الإسلام منجاة لهم من اضطهاد القوط وتحريرا لهم مما أصابهم، فقد فرضت عليهم المجاميع المسيحية قيوداً تناولت أحوالهم الشخصية وحرمت عليهم أحيانا تولي المناصب العامة.

ولذلك فقد وجدوا في الفتح الإسلامي الراحة والاطمئنان، واليهود ليس لهم حضارة خاصة بهم ومل نبغوا فيه كان في ظل الإسلام وبدافع من حيويته وبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق ذهب إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل الذي لقب بصقر قريش واستطاع أن ينشئ دولة أموية في الأندلس.



مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي

قرطبة

منذ الفتح الاسلامي لقرطبة ؛ بدأت تأخذ دورها في توجيه دفة الأمور وبرزت لتشارك عواصم العالم المتحضر آن ذاك في السياسة والثقافة والعبارة وغير ذلك من مظاهر الحياة الحضارية.

وكانت مستقر الخلافة وموطن الوزارة وموئل أهل العلم ومقصد الطلاب وكعبة الشعراء والأدباء وكان أهل قرطبة أو من عنى بترابط المدن وإنارة الطريق ليلا.

وقد نافست قرطبة في عظمتها القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق وفي أول ذي الحجة من عام ٣١٦هـ نصب عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة للمسلمين في الأندلس وتسمى بأمير المؤمنين وسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وجعل عاصمته قرطبة.

وأصبح سلطانه يمثل سلطان المسلمين في الغرب الإسلامي ووفدت عليه السفارات المسيحية تلتمس المفاوضة في شتى الشئون الثقافة والتجارية والسياسية كما وفد إليها الملوك والشعراء يقدمون إلى أميرها فروض الولاء والطاعة.

وعقدت معاهدات وعلاقات سياسية بين قرطبة ومعظم الدول النصرانية وتوالت وفود ملوك النصارى بعد ذلك على قرطبة ينشدون الحلف ويرجون الصداقة والمودة من زعيم الإسلام في الغرب، وفي سنة ٣٦٦هـ / ٩٤٨م وفد على الناصر رُسل قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينة بهدية ثمنية وكان يوماً مشهوداً زين فيه قصر الخليفة بأبدع زينة ونظمت العساكر والجنود تنظيماً كبيراً أدهش ضيوف الناصر وجلس الأمير على كرسي الخلافة في مهابة وإجلال يحف به أعضاء الأسرة الأموية وكبار رجال الدولة وقدموا إلى الناصر كتاب الامبراطور مكتوباً باليونانية وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الامبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفي ترجمة عنوانه ما يلي: " من قسطنطين وأتباعه المؤمنين بالمسيح إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه ".

العمران في قرطبة

أسرع عبد الرحمن الداخل ببناء قصر الإمارة بقرطبة ثم المسجد الجامع ثم بنى قصر الرصافة الذي خلد فيه ذكراه تشبيهاً له بوصافة جده هشام بدمشق.

ثم شيد عبد الرحمن الأوسط القصور وبنى المساجد الجوامع وأدخل في البلاد كثيراً من مظاهر الحياة الحضارية.

تقسيم قرطبة:

وقد قسمت قرطبة إلى خمس مدن تلي بعضها بعضاً وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفي كل مدينة مستقلة بنفسها وفي كل منها من الحمامات والأسواق والصناعات ما يكفي أهلها.

وكان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل منها مسجد وفقيه له الفتيا في الأحكام الشرعية وكان يبصر الناس بأحوالهم وبأمور دينهم، وكان يأتي إلى المسجد الجامع بقرطبة المصلون لتأدية صلاة الجمعة مع الخليفة وكانوا يسلمون عليه ويطلعونه على أحوال العيلة.

وقد بلغت شهرة قرطبة أهل أوروبا فأطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري: " جوهرة العالم".

وقد اتصلت مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث إنه كان يمشي فيه الإنسان تحت ضوء السرج المتصلة عشرة أميال وكان عدد أرباضها ٢١ ربضا في كل ربض منها المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون لغيره وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل منها فقيه مقلص " يلبس قلنسوة " تكون الفتيا في الأحكام الشرعية له وكان الفقيه يلبس دائما القنسوة على رأسه وقال شاعر في ذلك:

دع عنـــك حضـــرة بغـــداد وبهجتهـــا   ولا تعظـــم بـــلاد الفـــرس والصـــين

فمـــا علـــى الأرض قطـــر مثـــل قرطبـــة   ومـــا مشـــى فوقهـــا مثـــل ابـــن حمـــدي

وقال أحمد الرازي " قرطبة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يجيئ إليها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية زاهرة مشرقة أحدقت بها المنى فحسن مرآها وطاب هواؤها ".
وقال: " قرطبة أم المدائن وسرة الأندلس وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هى إحدى غرائب الأرض في الطبيعة والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه ".

مسجد قرطبة:

فكر عبد الرحمن الداخل في تشييد مسجد جامع يضارع المسجد الكبير في دمشق في بهائه ورونقه.

وقد تجلت قدرة العرب ومواهبهم الفنية في تشييد المساجد حيث يؤدون صلواتهم ويحافظون على شعائر دينهم فكانت هذه المساجد آية من آيات الفن روعة من روائع الزمن.

وقد فاقت المساجد الإسلامية الكنائس المسيحية عظمة ونافستها في زخرفتها ونقوشها وقد وضع حجر الأساس لهذا المسجد في عهد عبد الرحمن الأول وظل العمل مستمراً طوال إمارته وبعدها.

وقد توفى عبد الرحمن في سنة ١٧٠هـ فأتم ابنه وخليفته هشام الأول بناء المسجد ومن هذا التاريخ أصبح المسجد الجامع موضع اهتمام الخلفاء ومحل رعايتهم وتناولوه بالزيادة والتجديد والزخرفة والنقش.

وقد أقام عبد الرحمن الناصر صومعة عظيمة عام ٣٤٠هـ حلت محل الصومعة القديمة، كما أقام الحكم المستنثر مظلة تقي الناس هجير الشمس في أثناء الصلاة وفي أثناء الصلاة وفي أثناء الوضوء وقد أنفق على ذلك ١٦١ ألف دينار.

والناظر إلى المسجد تبدو له الأعمدة وكأنها غابة من النخيل ينيرها ضوء شاحب يتسلل من الصحن ومن شبكات الواجهات.

وتتسم العناصر المختلفة باتساق في المظهر الداخلي وفي التركيب الداخلي يجدون تداخل العقود التي تقوم على عمد ودعائم مرتفعة في الفضاء وتنتهى عند السقف في وضع أفقي يتم فيه ظلام خفيف وعدد الأعمدة ١٤٢.

والمسجد تعلوه قباب تتألف من ضلوع متقاطعة فيما بينها، بحيث تتكون منها أشكال نجمية بديعة ومن أروع هذه القباب قبعة الضود.

وتبلغ نوافذه ستة عشر نافذة يدخل منها الضوء فينير جوانب المسجد.

والمحراب أقيم على واجهته سبعة عقود ثلاثة الفصوص مزججة دقيقة التكوين والزخرقة.

أمكنة الوضوء بالمسجد: لقد هدم المستنصر الميضأة وبنى بدلا منها أربع ميضات، اثنين كبيرتين للرجال من الجهة الشرقية والجهة الغربية، واثنتين صغيرتين للنساء.

وكان الماء يجري في جميع هذه الميضات من قناة جلبت من سفح جلبت من سفح حبل قرطبة ويصب ماؤها الذي لا ينقطع ليل نهار في أحواض رخامية، وقد أزيلت هذه الميضات عندما تحول المسجد إلى كنيسة بعد سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين في النصف الأول من القرن السابع الهجري.

مساحة المسجد: تبلغ مساحة المسجد بعد زيارة المنصور ٣٣٠ ذراعاً وتبلغ عرضه ٢٣٠ذراعاً وأعمدته من الرخام وكانت مكسوة بالذهب واللازورد، وأصبحت بوائكه تسعة عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب.

وصارت أبوابه واحدا وعشرين بابا وقد كسيت بالنحاس الأصفر اللماع الرائع الصنع وكانت حوائط المحراب مكسوة بالفسيفساء.

المنبر: ومنبر هذا المسجد الجامع كان مصنوعا من العاج وبنفس الأخشاب وكان يتألف من ٢٥ ألف حشوة " قطعة صغيرة من الخشب " سمرت بمسامير من الذهب والفضة كما كانت هذه الحشوات محلاة بالأحجار النفيسة، وكان هذا المسجد ينار في الليل ب٤٧٠٠ مصباح وكان يستنفذ في كل ضبة ٢٤ ألف رطل من الزيت ١٢٠٠ رطل من العنبر والعود أما مصباح المحراب فكان مصنوعا من الذهب الخالص.

المنارة: كان ارتفاع المنارة إلى مكان الآذان ٥٤ ذراعا، وكان طول كل حائط من حيطانها على الأرض ١٨ ذراعا.

ويعتبر مسجد قرطبة الجامع من أجمل مساجد الإسلام في كبر مساحته وإحكام صنعه وإتقان بنيته وأصالته وقد تضمنت عمارته عناصر جديدة مبتكرة ظهرت لأول مرة في تاريخ العمارة العالمية، وقد أضاف عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦/٢٣٨هـ لهذا الجامع الأعظم زيارته الأولى بإضافة رواق أو بلاط من كل جانبيه الشرقي والغربي في سنة ٢١٨هـ، وإضافة ثانية من جانبه القبلي مساحة ٢٤ مترا سنة ٢٣٤هـ، وفي عهده نشطت حركة البناء والتعمير.

وكان يقوم على خدمة هذا المسجد ٣٠٠ رجل لإنقاذ البخور وإعداد الزيت العطر لإضافة عشرة آلاف قنديل فتيل للقناديل.

وظل هذا المسجد كعبة القصاد وجذب إليه طلاب العلم من الشرق ومن الغرب ومن مسلمين وميسحيين، وذاع ذكره بين الناس ونافس المدرسة النظامية في بغداد والأزهر في مصر، وفي سنة ٦٣٤هـ "١٢٣٦م" سقطت قرطبة في يد فرديناند الثالث المسيحي وبدأ في محو معالم الحضارة الإسلامية في قرطبة.

وكان مما قام به أن حول المسجد إلى كنيسة ولا يزال حتى الآن يحمل اسم Mez – Uitade Casculia La وهى كلمة أسبانية محرفة من العربية ومعناها المسجد.

قنطرة قرطبة:

ينبع نهر الوادي الكبير من مرتفعات سيراموربنا، ثم يشق طريقه بعد المنبع من سلسلتين من الجبال ويبدأ واديه وبه ضيق من منبعه حتى مسافات طويلة، ثم يبدأ الاتساع عند قرطبة حتى بلغ أقصى اتساع في الجزء الجنوبي ويصب النهر في المحيط الأطلسي جنوبي شبه جزيرة ايبريا.

وتمثل سهول هذا النهر منطقة من أغنى المناطق الزراعية في الأندلس وكان من أحسن الأنهار مطرزا بالأزهار وتصدح في جوانبه الأطبار وتعتبر هذه القنطرة من أعظم أنهار الأندلس وأعجبها وأقواسها سبعة عشر قوسا.

وطولها ٨٠ ذراعا وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ٢٠ ذراعا وعدد حناياها ١٨ حنية "قوس" وعدد أبراجها ١٩ برجا.

وقنطرة قرطبة من القناطر التي لا تزال آثارها باقية منذ فتح العرب لهذه البلاد.

وقد قام بن مالك الخولاني الوالي من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديدها سنة ١٠٢هـ.

ثم قام الخليفة الأموي هشام بن عبد الرحمن الداخل تجديدها وتدعيمها حتى صارت من أعظم الآثار الإسلامية وكان بالطرف الغربي من هذه القنطرة قلعة سماها العرب " القنطرة الحرة ".

وكان لها برجان عظيمان وكانت قرطبة تمتاز بهذه القنطرة ومما قيل فيها:

بـــــأربع فاقـــــت الأمطـــــار قرطبـــــة

هاتـــــان ثنتـــــان والزهـــــراء ثالثـــــة

مـــــنهن قنطـــــرة الـــــوادي وجامعهـــــا

والعـــــلم أعظـــــم شـــــئ وهـــــو رابعهـــــا

متنزهات قرطبة:

كانت الأرض التي تحيط بقرطبة مكسوة بمزروعات مختلفة الأنواع وكانت تبدو وكأنها بساط سندسي مطرز بالألوان المتعددة من الأزهار ومزين بالمتنوع المثمر من الأشجار يترقرق الماء بينها صافيا في مجار أبدعتها يد الخالق القدير.

وكان سكان قرطبة يتوجهون إلى هذه الأماكن للتمتع بجمالها ولقضاء فترات الراحة والاستجمام بها وقد أقام الخلفاء متنزهات متنوعة وقصور فخمة في هذه المناطق تغنى بجمالها الشعراء وأبدع في وصفها الكتاب.

وفي أيام الأعياد كانت الأنوار تتلألأ فيها وتنبعث من متنزهاتها ألحان الموسيقى الذي يشع في النفس الراحة ومن المتنزهات التي شاع ذكرها وانتشر بين أرجاء الدنيا صيتها:

منتزه الرصافة: أنشأ عبد الرحمن الداخل ضاحية بشمالي غربي قرطبة أطلق عليها اسم "الرصافة" تشبها برصافة دمشق ثم أقام بها قصراً منيفاً لسكناه وألحق به متنزها به حدائق غناء بديعة نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها.

منتزه السرادق: من المنتزهات المشهورة بجمالها وحسن تنسيقها وبديع أزهارها وكان مقصدا للفرجة يسرح فيه النظر وتبتهج فيه النفس.

قصور قرطبة:

ازدهرت قرطبة بكثير من مبانيها الفسيحة ودورها الكبيرة، وأنشأ الخلفاء في قرطبة أو قريب منها قصورا مصممة لسكانهم وللراحة والاستجمام فيها الملجس الزاهر والبهو الكامل.

قصر الإمارة: قصر قديم كان فيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونان والروم والقوط ما يعجز عنه الوصف.

وقد اتخذ عبد الرحمن الداخل منه قصر لأمارته وأخذ في تجميله والعناية به وكذلك

فعل الأمراء من بعده، وقد ألحق به عبد الرحمن الرياض والبساتين الجميلة وجرى الماء إلى كل ساحاته، وكان فيه قباب عالية لم ير الراؤؤن مثلها في مشارق الأرض ومغاربها.

قصر الدمسق: من القصور الجميلة التي أبدع بناؤها ونمقت ساحاتها وأفنيتها وكان يقوم على أعمدة الرخام وقد اتخذه أمراء الأندلس مجالا للترفيه وقد تغنى الشعراء بماله وحسنه وفضله على كل القصور.

وكانت وروده وأزهاره تنشر أريجها فتملؤه النسمات بما يشرح الصدر ويزيد الهموم من النفوس وقد وصفه الشاعر ابن عمار بقوله:

كـــل قصـــر بعـــد الدمســـق يـــذم

منظــــر رائــــق ومـــــاء نمـــــير

بـــه طلـــب الجـــني ولـــذا المشـــم

وثـــرى عـــاطر وقصـــر أشـــم

قصر الروضة: بناه عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٤هـ، وقد اختار مكانه على بعض المرتفعات الشرقية على نهر الوادي الكبير وكانت حيطان هذا القصر من الرخام السميك وكانت مبانيه تقوم على ٤٣٠٠ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساويا، ومن العجائب التي كانت بهذا القصر بركة كان أوزة من ذهب في رأسها لؤلؤة كبيرة وكانت هدية من القيصر ليون امبراطور القسطنطينية إلى الخليفة وصهريج مملوء بالزئبق فإذا أراد الخليفة أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أو ما إلى أحد حراسه ليحرك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد ضاربهم مادام الزئبق يتحرك.

وكانت تحيط بهذا القصر حدائق واسعة في وسطها قبة للخليفة معدلة لاستراحة بعد

القنص تقوم على أعمدة رخامية ذات تيجان مذهبة وقد بلغ من اتساع هذا القصر أنه كان يحوي أربعمائة حجرة، وأجنحة يأوي إليها آلاف الحراس والعبيد.

ضواحي قرطبة:

بلغت أرباض قرطبة نيفا وعشرون ربضا، وكان لكل ربض أسواقه وحوانيته ومسجده.
الزهراء: حكم عبد الرحمن الناصر الأندلس من سنة ٣٠٠ رلي سنة ٣٥٠هـ، وفي عهده ازدحمت قرطبة بسكانها فاتخذ لنفسه مدينة بالقرب من قرطبة وسماها الزهراء.

ورأى أن يجعلها مكتملة المعالم والاحتياجات فبنى بها مسجدا ليكون كغيره من المساجد الإسلامية الجامعة مركزا للعلم ومجمعا للعلماء ومنارا تشع منه المعارف، ولكنه كان يؤدي الجمعة والأعياد في مسجد قرطبة وكان يعمل في مسجد الزهراء يوميا ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الصناع والفعلة وكان طوله من القبلة إلى الصحن ١٣٧ ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٩ ذراعا، كما أقيم فيه منبر حول مقصورة جميلة.

وكانت أرضيته مفروشة بالرخام ذي اللون الأحمر كما حلى وسطه بنافورة بديعة الصنع، وقد استمر العمل العمل مدينة الزهراء من عام ٣٢٥هـ إلى آخر دولة الحكم بن الناصر نحو أربعين عاما.

وأول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة وأول خطبة خطبها القاضي أبو عبد الله بن محمد أبي المنسي وكانت الزهراء تتكون من ثلاثة أقسام لكل قسم منها سوره.

كان بالقسم الأول القصور وبالقسم الأوسط البساتين والرياض وبالقسم الثالث الدور والمسجد وقد تأنق الناصر في بنائها وبالغ في زخرفتها وجلب إليها الرخام المختلف الألوان من بلاد الأندلس ومن مدن أفريقيا ومن القسطنطنية وبعضه أهدى إليه من الملوك والأمراء.

وبلغت الأعمدة أربعة آلاف عمود والأبواب خمسة عشر بابا، وظل العمل جاريا فيها أربعين سنة شملت حكم الناصر وابنه الحكم المستنصر وقد اتخذ الناصر بها قصر الروضة وجعل الزهراء دارا لمنزله وكرسيا لملكه وأنشأ بها القصور الفخمة والبساتين الأنيقة وخصص بها للوحوش محلات فسيحة متباعدة السياج كما علق بها مسارح للطيور مظللة بالشباك وأقيمت بها دور للصناعة كصناعة آلات الحرب وغيرها من الحرف.

وقد حفر قناة من الوادي الكبير تمر بالجبل طولها ٨٠كم تمت عام ٣٢١هـ ولا تزال باقية حتى الآن وقد أطلب الشعراء في وصف ذلك كله.

وفي سنة ١٩١٠م اكتشفت الحفائر الأثرية جمالها المطوي وقال ابن خلكان عن الزهراء: " إنها من عجائب الدنيا أنشأها الناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة سنة ٣٢٥هـ ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل".

وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضها من القبلة إلى الجنوب ١٥٠٠ ذراع وعدد السواري التي بها أربعة آلاف وثلاثمائة سارية.

وكان يعمل في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ١٥٠٠ وكان يصرف من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة.

وقد انتقد العالم منذر بن سعيد البوطي إمام مسجد قرطبة تصرف الخليفة وبذل الأموال الضخمة في بناء هذه المدينة مما شغلة عن مباشرة أمور الدولة.

ولم تعمر المدينة طويلاً فقد خربت في عام ٣٩٩هـ في عهد محمد بن هشام بن عبد الجبار بين عبد الرحمن الناصر الذي عاد إلى قرطبة واتخذها دارا لإمارته.

الزاهرة: أنشأ الحاجب المنصور بن أبي عامر مدينة الزاهرة سنة ٣٦٠هـ شرقي قرطبة، واستغرق بناؤها عامين.

وشيد لنفسه بها قصرا فخما انتقل إليه سنة ٣٧٠هـ واتخذ بها الدواوين والأعمال وقامت بها الأسواق واتسعت بها المرافق والأرزاق وأنشذت بها البساتين النضرة واتسع بناؤها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة.

وقد ملأها المنصور بجميع أمتعته بأسلحته وأمواله، وتوسع مع الأيام في تشييد

أبنيتها حتى كملت أحسن كمال وجاءت في نهاية الجمال، وأنشأ المنصور بالقرب من الزاهرة ضاحية صغيرة أقام بها قصوره وقد عرفت باسم العامرية ولم تدم الزاهرة طويلا ودكت في سنة ٤٠٠هـ وأصبحت في خبر كان بعد أن كان حديث الناس ومقصد الآمال زهاء ثلاثين عاما.

ولما فرغ المنصور من بناء الزاهرة بدأ في المعارك مع الأعداء ودخل من المدن ما لم يدخله أحد من المسلمين قبل ذلك ثم دخل قرطبة دخولا لم يعهد قبل ذلك وشهد له فيها يوما لم يشهد مثله قبل ذلك.

وكان المنصور إذا عاد من معركته استعد لمعركة أخرى ولم تهزم له راية قط مع كثرة حروبه في الصيف والشتاء على السواء.

الصناعة

عنى الأمراء في قرطبة بالصناعة عناية فائقة في نواح كثيرة منها:
دار الصناعة بقرطبة: وكانت دار الصناعة بقرطبة ملتصقة بقصر الخلافة وقد عرفت ب" دار الصناعة بقرطبة " وكانت مخصصة لصناعة السفن.

كما أنشئت دار صناعة أخرى في مدينة "وشقة" كانت مخصصة لصناعة العدد الحربية من دروع وآلات نحاسية وحديد ثم تحولت دار صناعة السفن بقرطبة إلى دار لصناعة التحف المدنية، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر دارا تابعة للصناعة في مدينة الزهراء لصناعة آلات السلاح والحلى وأدوات الزينة كذلك بعض التحف العاجية.

وكان لهذه الدار الجديدة الفضل الأعظم في إنتاج عدد كبير من التحف العاجية ومن الجدير بالذكر أن معظم التحف العاجية كانت مخصصة لحفظ المسك والعنب والكافور.

التحف الفضية:كانت تنتج في داري صناعة قرطبة ومدينة الزهراء وتحتفظ كنيسة سان امستدريون بليون بقطعتين صغيرتي الحجم من الفضية يتخذان شكل قلب ويتميزان بزخارفهما النباتية ونقوشهما المشابهة لزخارف وكتابات صندوق حرنب ويحتفظ المتحف المحلي للآثار بقرطبة بقنينة من الفضة فحظ العطور مزودة بغطاء مقبب له مقبض متصل بحلقة متينة في بدن القنينة ويتميز بعضها المخروطي الطويل والمركب على بدنها الكروي.

ويزدان هذا العنق بزخرفة قوامها عقود صغيرة متلاصقة تنبث من إفريز داذري منقوش بزخرفة متكررة، أما البدن المتكرر فيزداد بزخرفة تشبه الحبل المتوج.
التحف البرونزية والنحاسية: تتألف هذه التحف من طسوت وأباريق وأواني الطب والمباخر والأقداح والقناديل وكلها من إنتاج دار صناعة قرطبة ومدينة الزهراء.

وقد عثر في قرطبة في أرض أحد بيوتها وعلى عمق ثلاثة أمتار على ١٣تحفة من

البرنز والنحاس الأصفر منها مجموعة مكعبة الشكل من النحاس تنتهي حافتها العليا على امتداد الأرجل الأربعة بأربع حمامات صغيرة الحجم.

الثقافة

حملت قرطبة مشعل الثقافة الإسلامية في الأندلس واحتلت مركز الصدارة بين دول أوروبا وأفريقيا وغدت موطن جذب للعلماء والساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة.

وطبقت شهرة جامعتها ومدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق ونمت فيها العلوم والفنون وبرز فيها العلماء في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والعلوم الرياضية من هندسة وحساب وفلك إلى جانب علوم الطب والموسيقى وغير ذلك من العلوم الوثيقة بحياة الإنسان وقرطبة من الناحية الجغرافية قطعة من أوروبا ولكنها كانت وثيقة الصلة بالعلوم الإسلامية في المجالين الثقافي والعلمي.

وكان سكانها يرحلون في كل عام إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ويقابلون الشيوخ الفضلاء والعلماء الأذكياء، كما أن العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس يحملون التراث الإسلامي ومنهم أبو علي البغدادي الفقيه والأديب في زمن الناصر وكان الأمراء يشجعون العلم والعلماء ويجمعونهم من الأقطار المختلفة ويغدقون عليهم العطايا والهبات.

الفقه: وكان علم الفقه أول ما اشتغل به الأندلسيون وكان للفقيه عندهم والقاضي منزلة لا تدانيها منزلة.

الحديث: عنى الأندلسيون بالحديث ومن مشاهير حفاظهم أبو عبد الرحمن بن مخلد المتوفي سنة ٢٧٦هـ.

الفلسفة: كما عنى الأندلسيون بعلم الفلسفة وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني من أهل قرطبة سنة ٣١٩/٢٦٩هـ.

الطب: كما عنى الأندلسيون بعلم الطب وأول من اشتهر به في الأندلس أحمد بن إياس

من أهل قرطبة وقد أخذ ديكارت من المسلمين في الأندلس بعض المذاهب الجلدية، كما أن اللغة العربية قد أثرت على اللغة الأسبانية في جميع نواحي الحياة وقد ساعد على نشر الثقافة الإسلامية أن حركة الانتقال كانت متاحة بين العواصم الإسلامية وكانت الوفود تأتي على هيئة بعوث علمية وتتسابق في الحصول على إجازات العلماء والشعراء وفى اقتناء الكتب النادرة والكبيرة.

آثار للثقافة الإسلامية: من الصور الثقافية للحضارة الإسلامية غسل الميت قبل دفنه والحمام يعتبر عنصرا إسلاميا يرتبط بالغسل والطهارة في الإسلام وقد بقيت الحمامات الإسلامية في قرطبة إلى قريب من القرن السادس عشر الميلادي يرتادها الرجال والنساء والأطفال.

وقد خصص لكل طائفة منهم يوم من أيام الأسبوع حتى لا يقع الاختلاط المفضي إلى الفساد ثم أخذت تلك العادة تختفي من المسيحيين.

والحجاب: كان من عناصر الثقافة الإسلامية وقد استمر شائعا في أسبانيا إلى القرن السابع عشر وكان يحرم على نساء النصارى أن يسرن سافرات في الطرق العامة ومنها قولهم إن شاء الله ومنها ذكر اسم الله تعالى إعجابا بمنظر جميل أو صوت حسن كالذي كان يفعله جمهور المسلمين في العالم حين يرددون لفظ الجلالة، ومنها قولهم .. حرسك الله وحفظك. ولا زال أهل الأندلس في الريف كلما ودع واحد منهم صاحبه قال له: dedids Alapas وهى الترجمة للتحية الإسلامية .. السلام عليكم، ومنها تقبيل الأيدي ومنها قولهم في الرسائل: أقبل أيديكم الكريمة.

وقد ترجم إلى الأسبانية كتاب السندباد " خدع النساء وكيدهن " وبعده بسنتين ترجم كتاب " كليلة ودمنة " وكذلك ترجم " ألف ليلة وليلة " الذي كان له أثره في القصص الأوروبي، وكذلك قصة ابن يقظان وهى ثمرة من ثمرات العبقرية الإسلامية والأدب التاريخي الذي يتعلق بعادات الشعوب و مظاهر حياتها.

المصحف العثماني بقرطبة:

كان المصحف العثماني متدولا في قرطبة وكان السلاطين لا يسافرون إلا ومعهم المصحف العثماني الكريم الذي كان له عند الأندلسيين شأن عظيم ومقام كبير وهو أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الأمصار "مكة/البصرة/الكوفة/دمشق".

المكتبات:

تكونت في قرطبة على عهد الأمير الحكم مكتبة هائلة، وكان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة وليس فيها إلا أسماء الدواوين.

وكانت هذه المكتبة تفوق في عظمتها مكتبات القاهرة وبغداد والإسكندرية بما تحويه من الكتب النادرة، وكان الأمير الحكم يعمل جهده على أن يظهر الكتاب الحديث في مكتبة قرطبة قبل أن يظهر في موطن مؤلفه وحين سمع أن أبا الفرج الأصفهاني عالم العراق أف كتابه المسمى "بالأغاني" بعث إليه سفيرا من سفرائه يحمل ألف دينار من الذهب الخالص ثمنا لهذا الكتاب وقد بهر المؤلف لهذا السخاء ثم أسرع وأرسل إليه الكتاب مصحوباً بقصيدة يطري فيها الخليفة الأموي وكان الأمير الحكم إلى جانب ذلك مولعاً بالقراءة شغوفاً بالاطلاع وكان يقرأ ويعلق على ما يقرأ بخط يده. وثبت على كل مؤلف اسم مؤلف اسم صاحبه وكناه وألقابه واسم عائلته والمكان الذي ولد فيه والمكان الذي مات فيه وغير ذلك، وقد جمع في داره من الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد الجم الغفير.

مكتبات أخرى: كانت هواية جمع الكتب واقتناؤها متأصلة في نفوس شعب الأندلس حتى أصبح العلم من آلات التعيين والرئاسة، وكان يقال: فلان عنده خزانة كتب، وفلان عنده كتاب كذا لا يوجد إلا عند فلان.

قال ابن رشد " إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً ".

وكان الأمراء يشاركون العلماء في علمهم وبعضهم كان يشارك الشعراء في شعرهم ومن الأمراء الشعراء الأمير عبد الله وأبو عبد الملك بن مروان والمستعين بالله الخليفة الأموي وولادة بنت المستكفي.

التعليم

استوعب المدارس الابتدائية جميع الأطفال في الأندلس وكان كل مسلم يجيد القراءة ويحسن الكتابة، وقد أنشأ الحكم المستنصر خمسة وعشرين مدرسة جديدة، أما التعليم الجامعي فكان في المسجد الجامع الذي كان يعتبر بمثابة الجامعة الحديثة وكان أشهر جامعة في العالم إذ ذاك.

فمسجد قرطبة الجامع كانت تلقى فيه المحاضرات في جميع المواد وكان الطلاب يأتون إليه من جميع أنحاء العالم الإسلامي والعالم المسيحي على السواء.

وكان يسود الجميع روح المودة الصادقة والزمالة المخلصة ومن هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثاني عشر الذي حج إلى قرطبة أيام أن كان راهباً لتلقي العلم في قرطبة، وقد أصبح بعد ذلك من علماء البابوات وأعظمهم شأناً.

ومن العلماء الذين قاموا بتربية الناشئة: أبو بكر بن معاوية وأبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي وابن القوطية عالم النحو المعروف.

والمواد التي كانت تدرس في جامعة قرطبة: القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي والفقه وأصوله وعلم التوحيد وقواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة والتاريخ والشعر والنثر والطب والفلسفة والموسيقى.

وكان الطالب الذي يأنس فيه أستاذه الكفاية ويلحظ فيه القدرة على التدريس، يعطيه إجازة مكتوبة وقد تطورت بعد ذلك إلى الإجازات للأكاديمية الجامعية فيما بعد.

وقد أصبحت قرطبة مركز التعليم والتوجيه، ووجد طلاب العلم والمعرفة أنفسهم مشدودين إليها ووردت وفود الدول المجاورة إلى قرطبة طالبة العون والصداقة حتى إن الفونس الثالث الملك النصراني المخلوع في سنة ٢٩٧هـ لم يجد طريقاً لتربية ابنه التربية الصحيحة إلا في قرطبة فعهد بتربية ابنه إلى علماء قرطبة.

وحدة اللغة

عامل المسلمون في الأندلس السكان الأصليين معاملة كريمة كان يأمر بذلك الإسلام وكفلت الدولة لهم حرية العقيدة وحرية تأدية الشعائر الدينية وعرف النصارى بالمستعربين وكان لغتهم اللغة اللاتينية، وكانت اللغة العربية العربية هى لغة العرب الفاتحين.

وفي عهد الأمير هشام الأول فرض تعليم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم ثم أصدر قرارا بضرورة تعليم اللغة العربية الرسمية، وقد برع المستعربون في اللغة العربية وتفوقوا في نظم القصيدة العربية على أبناء الضاد أنفسهم وأصبحوا مولعين بالتراث العربي من شعر ونثر بل وأصبحوا لا يتذوقون إلا الشعر العربي.

كما أصبح المسيحيون لا يعرفون اللغة اللاتينية وكان نصارى الأندلس أداة اتصال بين أسبانيا المسيحية ونشطت حركة الترجمة بين اللغات نشاطا محمودا، وأقبل العلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود على أمهات الكتب الدينية والأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفة يترجمونها بأمانة وإخلاص.

ومن الكتب الدينية التي أقبل المترجمون على ترجمتها: القرآن الكريم ومزامير داود عليه السلام والأناجيل الأربعة وكتاب كليلة ودمنة وكتاب السندباد وكتاب ألف ليلة وليلة، وكان المسلمون في الأندلس يسيرون على مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وقد أدخل موطأ مالك في الأندلس زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون وقد شجع الأمراء الأمويون انتشار مذهب مالك في الأندلس فكان لا يولي القضاء إلا من كان على مذهب الإمام مالك.

ويعتبر ابن عطية أول فقيه عمل على تنقية الدخيل وإزالة الإسرائيليات الوافدة على التراث الإسلامي من اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وسار هذا المنهج القرطبي صاحب كتاب التفسير المشهور.

وكان الأندلسيون يطلقون كلمة فقيه على من يريدون تعظيمه فيسمعون الأمير العظيم " فقيه " وكذلك العالم النحوي واللغوي لأنها من أرفع السمات عندهم وكان علم الفلسفة وعلم المنطق لهما حظ عند الخاصة فقط.

ومن الفلاسفة المشهورين: ابن ماجة وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان وابن رشد الذي ولد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ ومات بالمغرب سنة ٥٩٥هـ.

صناعة الشعر

استحدث الأندلسيون فنا من الشعر سموه الموشح وكانوا يسمون المتعدد من الأبيات بيتا واحدا وكان أكثر ما تنتهي إليه القصيدة سبعة أبيات وشاع الموشح في الأندلس لسلاسته فنسجت العامة على منواله.

وتركيب الموشحة يختلف عن تركيب القصيدة العربية في أن الموشحة يخالف الشاعر فيها بين القوافي والأبيات تتباين قوافيها وتعرف بالأسماط أو الأقفال، أما الخرجة فهى أهم جزء في الموشحة وتقوم فيها مقام المطلع في القصيدة وأكثر ما تكون الخرجة في اللغة العامية أو اللغة الأعجمية، أما سائر أجزاء الموشحة فهى بالعربية الفصحى والموشحات تمثل الشعر الشعبي في الأندلس، والشعر الفصيح الملتزم بالوزن والقافية نافست فيه الأندلس أهل المشرق وفي مطلع القرن الرابع ازدانت الأندلس بسفراء منهم: ابن عبد ربه صاحب كتاب " العقد الفريد ".

الاقتصاد

أصبحت أسبانيا الإسلامية في عهد بني أمية أغنى بقعة في أوروبا وأكثرها ازدحاما بالسكان، ولذلك اهتمت حكومة قرطبة بالسياسة الإنتاجية فعنيت بالزارعة وشقت لها الترع وحفرت القنوات وجلبوا إلى الأندلس كثيرا من الأشجار والثمار التي لم تكن معروفة من قبل.

وانتعشت الصناعة واشتهرت قرطبة بصناعة الحرير والصوف، وقد بلغ عدد عمال المصانع فيها من ١٣٠٠ عامل كما دخلت صناعة الأسلحة في قرطبة وقد ارتبطت حكومة قرطبة اقتصاديا بالمدن الإفريقية كالقاهرة وبيزنطية.

وانتشرت الزراعة لأن قرطبة قامت وسط سهل فسيح يمتد على ضفتي الوادي الكبير أميالا بعد أميال وكانت الزراعة مزدهرة، ولحقت التجارة بالزراعة والصناعة في الرواج والإزدهار وكان الشارع الكبير يسمى بالدرب وكان الميدان يسمى بالسويقة، وكان لكل حرفة شارع وكان شارع مرقطال خاصا ببيع الملابس الجاهزة وكان سوق الملابس القديمة يسمى بسوق الشعاطين وكانت هناك شوارع لتجارة الأحذية تعرف بالقرافين "الفلين" وكانت البضائع تحمل إلى هذه الأسواق من عدة مدن إفريقية وقد عبدت لها الطرق ونظمت القوافل التجارية بالبر والبواخر، وكان أهل قرطبة متمولون متخصصون وكان أكثر ركوبهم البغال وكان الثراء السمة الغالبة على الحياة القرطبية في طبقات المجتمع المختلفة على امتداد عصر بني عامر وفي خلال عصر الفتنة والطوائف ونتيجة للتدهور السياسي فإن الحالة الاقتصادية بالنسبة لمجموع الشعب كانت بالغة السوء.

الحالة الاجتماعية

كان قرطبة نتيجة للتطور الحضاري الذي طرأ على قرطبة على يد خلفائها العظام أن ازدحمت بالسكان من أجناس مختلفة سواء أكانوا من طلاب الكسب المادي عن طريق التجارة أو العمل في قصور الحكام والامراء أو في أمور الجيش والسياسة.

وقد بلغت دور العامة في قرطبة ١١٣٠٧٧ داراً.

كما بلغت دور الأكابر ٦٠٣٠٠ دار.

وكان بها من الحوانيت ٨٠٤٥٢ حانوتاً.

وكان بها من الفنادق والخانات ١٦٠٠ فندق وخان.

وكان الطريق مفتوحا أمام اليهود والنصارى للوصول إلى منصب الوزارة فضلا عن غيره من المناصب ووجدت ظاهرة الاختلاط والاتصال عن طريق التصاهر وتبادل المنافع التجارية وغيرها في عهود السلم وكانت هناك أحياء مخصصة للطبقة العليا وهى الرصافة والزهراء والزاهرة، أما بقية الأرباض فكانت للطبقة الوسطى وللطبقة الدنيا وفي هذا المجتمع كان للمرأة مكانتها شأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية وذلك في حدود مما أوجبه الإسلام على أساس طبيعة المرأة وفطرتها وكانت تتمتع بقسط كبير من الحرية، وكان لبعضهن نفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية وقد شارك بعض النساء في رواية الحديث الشريف.

وكان لأهل قرطبة عناية والملبس الجيد الأنيق، وكان القرطبي الأصل لا يخرج من بيته إلا أسبغ على نفسه رداء من القطن أو الكتان أو الصوف ويلبس فوق ذلك عباءة، وكانوا يسيرون برؤوسهم مكشوفة وشعورهم تسترسل إلى آذانهم وكان الفرد في قرطبة إذا لم يملك إلا درهما واحدا فإنه يشتري به صابونا ليغتسل به وكان الماء جاريا إلى بيوتهم بواسطة

أنابيب الرصاص التي لا زالت آثارها باقية حتى الآن.

شعر في قرطبة: قال الإمام محمد عبد الحق بن عطية يستودع أهل قرطبة

أســـــتودع الله أهـــــل قرطبـــــة

والجـــــامع الأعظـــــم العتيـــــق ولا

حيـــــث عهـــــدت الحيـــــاء والكرمـــــا

زال مـــــدى الـــــدهر مأمنـــــا حرمـــــا

شخصيات من قرطبة

عبد الرحمن الداخل: استحق عبد الرحمن الداخل أن يسميه خصمه اللدود أبو جعفر المنصور صقر قريش، وقد تولى الإمامة في عام ٣٠٠هـ.

وقد تمكن عبد الرحمن الداخل بفضل قدراته المتميزة من إطفاء نيران الفتن التي كانت موجودة في الأندلس وأعاد إلى الأندلس سابق وحدتها ورفع منار حضارتها، وقد اجتمع شمل المسلمين تحت لوائه وأصبحوا يؤلفون قوة عظمى كان لها أعمق الأثر في بث الرعب والهلع في قلوب نصارى أسبانيا وهابه ملوكهم ورهبوا جانبه ووسطوه فيما بينهم مقابل تنازلات إقليمية من حصون وقلاع وتعاهدوا معه على تسليمها للمسلمين، وتوالت سفاراتهم إلى قرطبة ومدينة الزهراء تخطب وده وتزف إليه الملوك والأمراء وتنافسوا في كسب سلمه، وكان ذلك حافزا على تجميل قرطبة حاضرة الخلافة وظهرت في قرطبة على عهده حركة معمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل بعد أن تفرغ للتغيير السلمي وساعد على تنشيط هذه الحركة الناصر بالإنشاء والبناء فشرع في بناء مدينة الزهراء واستفرغ وسعه في بناءها، وأصبحت قرطبة تنافس القسطنطينية وبغداد في التوسع العمراني وفي رقي العلوم والآداب وأضاف الحكم إلى بيت الصلاة بجامع قرطبة الزيادة الحكمية التي زودته بكل قيمه البنائية الأصلية وأضاف إليها عناصر معمارية زخرفية مبتكرة.

وتتمثل في القباب الأربعة التي حددت مدخل هذه الزيادة من مظاهر الأصالة في بنيان الزيادة الحكيمة بجامع قرطبة القباب والشبكات التي تعلو أوجه الصوامع الموجودة مواجهات القاعة في قصر الحمراء بغرناطة وقد أصبحت قرطبة مركزا حضاريا مهما في العالم الوسيط، وبلغت من اتساع العمران والتمصير الغاية وظلت تنعم بهذا الازدهار والرخاء ما يقرب من قرن من الزمان إلى أن نشبت الفتنة واشتعلت نار الحرب الأهلية بقرطبة في أعقاب مصرع الحاجب عبد الرحمن بتحول من المنصور بن أبو عامر.

فتوالت على قرطبة المصائب واستحكمت بها الفتن وهزت كيانها عواصف التمزق والفوضى العامة فغير جوهرها وانقسمت البلاد واشتد الصراع العنصري في البلاد وقامت عدة دويلات ضعيفة عرفت بدويلات الطوائف وكانت مطمعا سهلا لدولة المسيحيين في أسبانيا، وأخذت حركة الاستيراد تنشط وعكف الحكام على حياة اللهو والترف وساروا إلى الفونسو السادس كبير ملوك النصارى اتقاء لشره يطلبون وده.

الحكم بن هشام: ولد في قرطبة سنة ١٥٤هـ وتولى الإمارة في عام ١٨٠هـ كان شديد الحزم ماضي العزيمة حسن التدبير وكان أشد الأمراء إقداما ونجدة وصرامة كان عادلا وشغوفا بأبهة الملك ونشر مظاهر البذخ الكامل.

فكان أول من أنشأ بالأندلس بلاطا ملكيا إسلاميا وأنشأ الحرس الخاص كان الحكم فارسا مجيدا يعشق الفروسية والصيد، وكان له ألفا فرس من الجياد المختارة مرابطة على شاطئ النهر تجاه القصر كان يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين، كان قوي النفس حسن التدبير، واسع الحيلة، فاقد الرأي، كان خطيبا مفوها وشاعرا رفيعا وأديبا مجيدا.

وكان إلى جانب ذلك رجل حرب وسياسة، وكان شديد الوطأة على أعدائه الثائرين ضده ففي عهدهكثرت الفتن والاضطرابات، وكان عصر ازدهار للآداب والعلوم، وظهر في عهده كثير من العلماء والشعراء، وقد أقام الفقهاء ضده ثورة عارمة مرتين: منها ثورة الربض عام ٢٠٢هـ مارس ٨١٨م وقد هرب أهل الربض من قربطة واتجه إلى طلبطلة، وبعضهم ترك الأندلس كلها إلى مراكش.

وكان من نتائج هذه الثورة: أن تزين الحكم بالتقوى واعتصم بالعروة الوثقى وأقر بذنوبه واعترف.

منذر بن سعيد: منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة، ولد في عام ٢٦٥هـ تعلم وتأدب وبرع في العلوم الشرعية واللغوية، وألف كتبا جمة في العلوم القرآنية والسنة النبوية، كما ألف الزهد والتصوف وكان خطيبا بارعا بليغا عالما بالجدل حاضر الجواب ثابت الحجة ولم يكن

معروفا في بداية الأمر.

ولكن الناصر حين جلس على كرسي الخلافة أخذ الخطباء والشعراء يشيدون بذكره ولم يستطع أكثر من عالم أن يستمر في الحديث هيبة الموقف فوفق منذر بن سعيد الذي كان حاضرا وأكمل افتتاحية أبي علي القالي وانطلق في بيانه ما تلجلج ولا تلكأ حتى انتهى من خطبته، ولفت بلباقته وحسن ما شاء ولئن أخرني الله بعد لأرفعن من ذكره".

واستدعى الناصر ابنه الحاكم وأوصاه بأن يضع يده على منذر ويستخلصه لنفسه ويرفع من شأنه، وقد تولى قضاء البصرة بعد وفاة القاضي محمد بن عيسى سنة ٣٥٥هـ وكانت تغلب على منذر صفات الزهد والورع، وكان منذر بن سعيد إذا صعد المنبر وخطب الناس نفذت كلماته إلى قلوبهم وتغلغلت في نفوسهم وفعلت فعل السحر إلى جانب رقة العبارة وقوة البيان وكان لا يخشى في الحق لومة لائم، وكان كثير الدعابة والفاكهة والتلطف مع الناس وكان إذا نطق نطق بالحق وإذا حكم بين الناس حكم بما أنزل الله ومن الكتب التي خلقها كتاب أحكام القرآن وكتاب الناسخ والمنسوخ.

الحاجب المنصور: عاش عيشة عادية وبذكائه استطاع أن يقعد على سرير الملك وأن يحييا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الخطب والكتب باسمه وأمر بالدعاء له على المنبر عقب الدعاء للخليفة، تربع على أريكة الحجابة قرابة سبع وعشرون عاما، وقد جعل الجهاد في سبيل الله شغله الشاغل فسار بجيشه المظفر من بلد إلى بلد لم تهزم له راية قط، وقد ألقى الرعب في نفوس أهالي شمال أسبانيا المسيحيين ثم وطد سلطانه في المغرب الأقصى، ولم يحدث أن ازدهر نجم الإسلام في الأندلس كما ازدهر في عهد المنصور وذلك إذا استثنينا عهد عبد الرحمن الناصر.

وقد شغف بالعلم والعلماء وأحب الأدب وشجع الشعر والشعراء وذخرت البلاد في عهده بطائفة من مشهوري العلماء والأدباء والشعراء، وكان له في كل أسبوع مجلس يجتمع فيه العلماء وغيرهم للبحث والمناظرة ولم يكن بالمتجبر المذموم ولا بالمتكبر الذي إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم ولا بالظالم المجهول الذي لا يخشى ربه.

كان يحب العدل وينصر من ظُلم من رعيته، كان يقسو على الظالم حتى يأخذ للمظلوم حقه منه، وبذلك نعم الناس بالطمأنينة والراحة والأمن والإحساس بالاستقرار والهدوء، لقد أقبلت الدنيا على المنصور وامتلأت الخزائن بالمال فجاد بالكثير وأعطى الفقير والمحتاج والضعيف والمسكين، ووقاه الله تعالى شح نفسه فاجتمعت حوله القلوب ولهجت بذكره ألسنة الناس وضرب على من يأكل أموال الناس بالباطل، وقد ضرب المنصور بقسط وافر في تشجيع العمران وبخاصة فيما يعود بالخير على رعيته فوسع المسجد الجامع بقرطبة وأقام على نهر قرطبة أخرى قريبة من القنطرة القديمة وقد أنفق عليها ١٤٠ ألف دينار والنتهى منها في سنة ٣٩٩هـ، كما أقام قنطرة أخرى على نهر استجة وأنشأ ضاحية الزاهرة وكان دائما يحمل مصحفا قد خطه بيده في أسفاره وغزواته يدرس منه ويتبرك به، وقد تمنى أن يموت مجاهدا في سبيل الله راجيا رحمة به ومغفرته وبلغ من قوة رجائه: " أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في مواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له صرة ضخمة جعلها في حنوطه وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعا لحلول منيته وقد اتخذ الأكفان من أطيب ما كسبه من الصنعة الموروثة عن أبيه وغزل بنائه ".

مات في عام ٣٩٤هـ نتيجة لجراح أصيب بها في معركة من معاركه التي بلغت نيفا وخمسين معركة وحمل على سريره ودفن في مدينة سالم بشمال الأندلس ودفن معه الغبار كما أوصى بذلك ونقش على قبره.

آثـــــاره تنبيـــــك عــــــن أخبــــــاره
تـــــالله لا يــــأتي الزمــــــان بمثلـــــه
حــــتى كأنــــك بالعينــــان تــــراه
أبــــدا ولا يحمــــي الثغــــور ســــواه

وفي سنة ٤٤٠هـ انتهت دولة الأمويين في الأندلس وظهر المتغلبون وقويت شوكة بني عباد وغيرهم، واستولى كل أمير على ناحية وخلت قرطبة من سلطان يرجع إليه في الأمور، وأخيرا خربت قرطبة بالجور عليها وصارت كإحدى الدول المتوسطة، ومنذ قيام الفتنة في قرطبة اضطر علماؤها وفقهاؤها إلى الفرار منها بعد أن قام البربر بهدم المكتبات وحرقها وسلب القصور ونهبها لقد هجروا قرطبة ولجئوا إلى الطوائف الذين رحبوا بمقدمهم وأكرموا وفادتهم وعرفوا قدرتهم مما ساعد هؤلاء العلماء والأدباء على الاسترسال في إنتاجهم.
ابن حزم: ابن حزم القرطبي الأندلسي شخصية مرموقة في عالم الثقافة الإسلامية التي غمرت الفكر الإنساني بمعارفها وسعة إطلاعها من ٣٨٤ إلى ٤٥٦هـ.

أبوه الوزير أبو عمر الذي كان وزيرا للحاجب المنصور، امتاز ابن حزم بحدة الذهن وسرعة الخاطر، كما امتاز بكثرة الإطلاع وسعة العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والمذاهب والملل والنحل كان أمة واحدة في عالم الاتأليف فقد ألف في الفقه والأصول والمنطق والفلسفة وقد وجه عناية خاصة إلى دراسة الديانات المختلفة المتباينة وقارن بعضها ببعض في بعض مؤلفاته، ومن مؤلفاته الفصل بين أهل الأهواء والنحل والصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين، والجهورة في أنساب العرب، طوق الحماسة.

عاش في الفترة التي سيطر فيها على قرطبة بنو عامر ثم تلاهم عصر الفتنة وبنو جهور وبنو عباد، ولد في آخر يوم من أيام شهر رمضان سنة ٣٨٤هـ ٧ من نوفمبر سنة ٩٩٤م، وكان مولده في قرطبة بقصر أبيه القريب من الزاهرة التي جعلها المنصور بن عامر دار إمارة تجمع مظهر قوة السلاح ومظاهر العظمة والجاه وتولي ابن حزم وزارته المشهورة لصديقه الخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الخامس الذي بويع له بالإمارة في قرطبة في رمضان سنة ٤١٤هـ ولم تدم أكثر من ٤٧ يوما وكانت له رحلات سياسية اضطرارية مصحوبة بالآلام والتوجع والحسرة ولم يتمن الخروج من قرطبة إلا ليزور المشرق حيث كانت بغداد قبلة العلوم وكعبة الفكر الإشلامي وتفرغ للعلم.

أخلاقه: أبرز أخلاق ابن حزم وفاؤه وتدينه وعنهما تتفرع كل سلوكياته طوال حياته وما ورد في رسالته الرائعة مداوة النفوس يعتبر مرآة تشف عن أخلاق ابن حزم، وقد عاش حياة حافلة بالإنتاج العلمي والجدال في الحق والصدق والإيمان، وقد توفى عام ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦هـ ٥١ من يوليه سنة ١٠٦٤م عن عمر يبلغ ٧٢ سنة، وقد امتاز ابن حزم باتجاهاته الطيبة وجهوده الكبيرة في نواح متعددة من الفكر وطرق كثيرة من مجالات المعرفة كالفقه والأصول ومقارنة الأديان "الملل" والفرق الإسلامية "النحل" والأدب شعره ونثره واللغة والنحو والمنطق والفلسفة والتاريخ، وكان يجيز الشعر الذي فيه الحكمة والخير مما ينبه النفوس وينشطها ويدعو المرء إلى صالح القول والعمل كما كان يحذر من بعض أنواع الشعر مثل الغزل والتصعلك والهجاء، أما المدح والثناء فقد كان عنده من المباح المكروه.

مؤلفاته: يعتبر ابن حزم من أكثر علماء الإسلام تصنيفا وقد بلغت مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغيرها نحو أربعمائة مجلد تحتوي على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وله رسائل موجودة وله أيضا رسائل مفقودة وتدل مؤلفاته على موسوعة ابن حزم وعبقريته التي جعلته عبقري الأندلس العظيم وذلك لتعدد مجالات المعرفة التي طرقها وهى:

- ابتكار موضوعات جديدة في المعرفة لم يسبق إليها.
-كثرة مؤلفاته.
- تأليفه لمؤلفات طويلة ثم اختصارها بعد ذلك.
- جمعه عدة رسائل في مصنف واحد.

ويلاحظ:

- أن كتبه تتضمن كثيرا من سيرته الذاتية.
- وتعكس كتبه ألوانا من الحياة الأندلسية الاجتماعية والاقتصادية.

وتعتبر هذه المؤلفات أكبر وثيقة متصلة للحياة الثقافية والفكرية والعقدية التي نظمت العالم الإسلامي من خلال القرون الثالثة الرابع والخامس والسادس للهجرة، وتمتاز مؤلفاته

باستقلال فكري في نطاق النص القرآني والحديث النبوي واجماع الصحابة وتدل على مقدرة عقلية عجيبة في الفهم الدقيق الشامل وفي الاستنباط والاستنساخ وفي نقد آراء الآخرين ومجادلتهم ومناظرتهم، ويرى ابن حزم أن من فوائد الوعي بالتاريخ: " الإطلاع على فناء الممالك وخراب البلاد المعمورة وتقلب الدنيا بأهليها وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم ".

ويرى أنه علم منشط للنفس تستريح به عند سباقها من العلوم الأخرى ويقع علم أخبار الأمم بعد علم الشريعة وقبل علم اللغة، وقد ركز ابن حزم على ثلاثة عناصر وقدمها عوامل تسهم بدرجة كبيرة في إيداع الحضارة وهى عوامل تؤكد أن الجانب الروحي والفكري هو أهم تفسير للتاريخ.

وأن العوامل المادية والبيئة مع ضروريتها تحتل مرتبة ثالثة من صنع الحضارة وفي استمرار تماسكها وهذه العناصر هى:

أولا: العقيدة والشريعة: فالعقيدة تشبه الروح التي توجه الإنسان إلى البناء وتنقي باطنه من الأمراض الاجتماعية والخلقية، والعقيدة تدفع إلى الاهتمام بالتحصن الذي يحمي الأمة كبناء الأسوار والحصون واتخاذ السلاح وما إلى ذلك وبدون العقيدة والشرائع الزاخرة باطنا وظاهرا ستظل فصيلة الفهم والنطق والعقل وروح الإنسان كالبهائم سواء بسواء.

ثانيا: العلم والتربية: والعلم عند ابن حزم يضم كل العلوم تطبيقه ونظرية وقد فرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا وأدخل كثيرا من الحرف المهنية وأساليب الزراعة في برامج التعليم والتربية الذي ضرورة أن تنتظم الأمة لكي تعيش في مستوى إنساني معقول من التفاهم والعقل والتمييز.

ثالثا: منهج البحث التاريخي: لقد استمد ابن حزم ثقافته من القرآن الكريم والسيرة النبوية وقد أفاد المؤرخ المسلم من زاويتين:

- زاوية المادة التاريخية التي قدمها سواء ما يتعلق بتاريخ الأمم أو غيره.
- زاوية منهج البحث.

كما استمد ابن حزم ثقافته من كتب السيرة النبوية وكتب الأدب وكتب التراث التاريخي الإسلامية ومن المصادر التاريخية المباشرة وقد أكد ابن حزم على ثلاثة جوانب في التكافل الاجتماعي:

١- التكافل الاجتماعي

٢- التزام الدولة بكفالة حقوق الفرد الاجتماعية

٣- المستوى المعاشي الكريم الذي يعتبر الحد الأدني لكل إنسان ويرى حق الجوار والماعون وحق الضيافة ونحو ذلك.

زرياب: اشتهر زرياب بالشعر والأدب وعلم الفلك والتاريخ وكان حافظا لكثير من الحكم والأمثال فصبح حسن الصوت حلو الحديث درس الغناء على يد إسحاق الموصلي في بغداد ثم ذهب إلى قرطبة ومعه أسرته وقد أسس زرياب في قرطبة مدرسة للموسيقى ذاع صيتها كما بحث في طبقة الأنغام وموارد الصوت البشرية بحثا جديا فجعل أوتار العود خمسة بعد أن كانت أربعة كما اتخذ مضرب العود من أقدام النسور ومن الخشب وأصبحت شهرة زرياب مضرب الأمثال وقد أثر زرياب في مجتمع قرطبة وما حولها بأساليبه في المأكل والملبس والعادات وقد طبع زرياب العصر بطابعه وأصبح مثلا يحتذى به في ذلك وقد تحكم في ابتداع الأزياء وحث الناس على تنويع ملابسهم تنويعا يتناسب مع اختلاف الفصول وأبطل عادة كانت سائدة في الأندلس وهى إعفاء الشعر وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدقين، ومن آداب المائدة ما سرى استعماله بين أهل الأندلس وهو من تأثير زرياب فإليه ينسب استعمال أسمطة الطعام من الجلد وعنه أخذ الناس استعمال الأكواب الزجاجية وتفضيلها على أكواب الذهب والفضة التي كانوا يستعملونها، وقد أصبح اسم زرياب باقيا ومقرونا بتطور الحياة الاجتماعية في تلك البلاد.

ولادة بنت المستكفي: أبوها الخليفة محمد الثالث الملقب بالمستكفي، كانت بارعة الجمال،

شاعرة نادرة الذكاء، وكانت تجيد فن المقابلة وإدارة الحديث مع سرعة الخاطر ولباقة التصرف وقوة الشخصية وكانت المرأة الأولى في المجتمع القرطبي في عصرها، وقد جعلت ساحات قصرها قاعات يتنافس فيها العلماء ويتبارى فيها الشعراء ومن شعرها المشهور قولها عن نفسها:

أنـــــا والله أصـــــلح للمعـــــالي
وأمشـــــى مشـــــيتي وأتيـــــه تبعهـــــا

ابن جهور: قامت دولة بني جهور في قرطبة على أنقاش الخلافة الأموية وقد ولى الناس أبا الحزم جهور أمر قرطبة بعد أن طردوا هشاما الأخير الملقب بالمعتمد بالله سنة ٤٢٢هـ وكان ابن جهور حاكما قديرا استطاع أن يلم الشعب وأن يبعث النهضة في قرطبة بعد أن كانت في أسوأ حال عند سقوط الخليفة هشام وكان بين ملوك الطوائف بمنزلة الأب يفصل بينهم في القضايا ويصلح بينهم في المنازعات، توفى ابن جهور في ٤٣٥هـ/١٠٤٣م.

وتولى الإمارة بعده ابنه أبو الوليد ابن جهور الذي استأنف ما بدأه أبوه وترسم خطاه في الإصلاح والنهضة ولكنه تنازل عن السلطة لابنيه عبد الرحمن وعبد الملك وقد تغلب عبد الملك على أخيه وانفرد بالإمارة، وقد واصل عبد الملك بن جهور حكمه في قرطبة إلى أن استولى عليها ابن عباد وطرد عبد الملك منها وأعلنت جيوش ابن عباد المعتمد بن عباد ملكا على قرطبة في سنة ٤٦١هـ/١٠٩٩م.

وبالقضاء على دولة عبد الملك انتهت دولة بني جهور في قرطبة التي ظلت أربعين عاما، وأخيرا ودعت الأندلس الموحدين لتقع فريسة للغزو النصراني الذي توالت ضرباته على المدن والحواضر فأخذت تسقط واحدة تلو الأخرى في يد فرديناند الثالث، لقد سقطت

قرطبة في سنة ١٢٣٦م وأعقبها اشبيلية سنة ١٢٣٦م وانحسر ظل الإسلام عن كثير من بلاد الأندلس حيث لم يبق عند منتصف القرن الثالث عشر سوى غرناطة التي كان يحكمها بنو نصر، وفي القرن الثالث عشر تقدم الصليبيون وهم مزيج من جيوش كثيرة ودمروا كل شئ حتى سووا كل شئ بالأرض وبقيت مغارة صغيرة تسمى جيرالدا لتخبر العالم بما حدث في قرطبة وفي الأندلس، ونقص عدد المسلمين من ثلاثين مليونا إلى ثلاثة ملايين.

لقد قام الأسبان بتنصير المسلمين وأحرقوا مصاحفهم وهدموا مساجدهم وجعلوا أمر المسامين إلى رئيس الأساقفة ثم جاءت محاكم التفتيش فحرقت كل شئ إسلامي وعملت على تنصير المسلمين أوإحراقهم، لقد سقطت قرطبة في يوم الأحد ٢٣ من شوال سنة ٦٣٣هـ ١٢٣٦م، وكان ذلك بجيوش ملك قشتالة فراندة بن الفتش.

لقد كانت قرطبة خلال خمسة قرون مثوى للعلم والمعرفة ومرتوى للعلماء والطلاب وموطنا من مواطن النجدة والفروسية ومنتجعا للقادمين إليها، وقد بذلت قرطبة جهودا كبيرة للوقوف ضد المعتدين من جيوش قشتالة لكنها اضطرت أخيرا إلى التسليم وقد تحول مسجد قرطبة الجامع إلى كنيسة وليس في قرطبة الآن سوى قطعة من مسجدها الأعظم الذي بناه عبد الرحمن الداخل، هذه هى قرطبة وهذا هو دورها في دورها الفكري الإنساني ولا زال لها في قلب كل مسلم ذكرى تقصر عنها الذكريات فهى تحكي عاصمة أمة ذهبت ودولة اسلامية انقرضت وجنات ضيعت فهى بحق كما قالوا "الفردوس المفقود".

قرطبة في العصر الحديث

لقد سقطت قرطبة بعدها مدن الأندلس كلها مدينة بعد أخرى وكانت آخر مدينة سقطت في أيدي نصارى الأندلس غرناطة وذلك في عام ١٤٩٢م، وكان من المنتظر أن يكون سقوط الأندلس بيانا للناس وعبرة للأمة الإسلامية حتى تتقي السقوط بعد أن حقت عليها سنة الله تعالى في الهلاك وزالت دولة المسلمين وحضارتهم حيث كانت الرفاهية والترف طريق الفسوق الموصل إلى الدمار.

لقد كان في الأندلس الإسلامية أكثر من عشرين دولة تتنازع فكل مدينة دولة إضافة لاتساع الهوة بين الحكام وأهل الفكر والعلم مما اضطر الكثير من العلماء والمفكرين إلى الهجرة إلى بلاد الشام وإفريقيا فأصبح الحكام يحكمون بلا عقل يفكر ولا رأي ناضج ناصع.

ونلاحظ أن الروح القبلية الجاهلية والإقليمية المغلقة والتطلع إلى الغنيمة تسري في حياة المسلمين المعاصرة وتشتد كلما تراجعت المعاني الإيمانية، ولا يوجد الاستفادة من الأحداث التي مرت بالأمة الإسلامية في الأندلس وفي غيرها مع أن الله تعالى يقول: " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين" "آل عمران:١٣٨،١٣٧".

في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث يسر المسلم حينما يجد الكثير من المؤتمرات الثقافية والفكرية على مستوى أسبانيا والعالم كله محاولة استرداد الحقبة الإسلامية التي تمثل التاريخ الحقيقي بالأندلس، وبخاصة وأن الأندلس فترة حضارة ومعرفة قيم إنسانية وكسب علمي يشكل

الأرضية التي تقف عليها الحضارة الأوروبية اليوم، كما أن الأندلس لا تزال تعني فيما تعني الحيز المهم من المكتبة الإسلامية في الفقه والتفسير والحديث والأدب ولا يزال أعلام الأندلس من المعالم الكبرى في التراث الإسلامي والميراث العلمي والتشكيل الثقافي حتى إننا نستطيع أن نقول: " إن ثقافة المغلوب وحضارته لا تزال حتي اليوم أقوى من سلطة الغالب وقوته ولا تزال الفترة الإسلامية هى مرحلة التنوير والحضارة في التاريخ الأسباني كله "، وفي ذلك يقول العالم الأسباني أمريكو كاسترو أكبر مؤرخي أسبانيا المعاصرين والذي توفى قبل سنوات قليلة في كتابة " الحقيقة التاريخية لأسبانيا ": "إن الأندلسيين هم الذين خلقوا أول شعور وطني في أسبانيا وأنه لولاهم لما أصبح لأسبانيا أي تمييز وخصوصية تعليان من شأنها بين الأمم ليس في تاريخها الحديث أيضا".

كما يسجل المستشرق الأسباني الدكتور بدرو مارنيمنز مونتابث شهادته قائلا: "إن أسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في الإسلام وحضارته وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى أوروبا المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والتخلف ".

وهكذا نرى أن التاريخ الإسلامي في الأندلس ما زال هو الذي يشكل الشفرة المتألفة في تاريخ أسبانيا المعاصرة على الرغم من كل أحقاد التعصب ومحاولات الطمس المستمرة، ولازال التاريخ العلمي والثقافي الذي يشكل الضمير الحي للإنسان في أسبانيا موجودا على الرغم من موجات التعصب المتتالية، فالحقيقة الإسلامية في الأندلس هى العطاءات الثقافية والعلمية التي لاتزال غذاءً فكرياً لاستمرار الحياة الإسلامية والصحوة في الأندلس في العصر الحاضر تجد صعوبات متعددة ولابد من الاستمساك بالمعيار الإسلامي في التعامل مع الأشخاص.

الصحوة الإسلامية في الأندلس

لقد ظهرت الصحوة الإسلامية في السنوات الأخيرة في كثير من بلاد العالم ولكن من العجيب أن تظهر في الأندلس، وذلك بعد أن حدث ما حدث للمسلمين في هذه البلاد.

لقد تفننت الكنيسة والدولة في اضطهاد المسلمين بالأندلس وعملوا على تنصيرهم بالقوة الغاشمة ومنعوهم من التكلم باللغة العربية وأحرقوا كتبهم في الساحات العامة وقتلوا علماءهم وأحرقوا أحياء وأخذوا أبناءهم لتعليمهم الدين المسيحي فقاموا مقاومة مستميتة جيلا بعد جيل على الرغم من تسلط محاكم التفتيش التي أحرقت واستعبدت وسبت وصادرت وأتلفت الأموال، وقاوم المسلمون هناك دون مساعدة من العالم الإسلامي طوال مائة وعشرين سنة بعد سقوط غرناطة، نعم قاوم المسلمون وتشبثوا بالإسلام سرا وأضاعوا المال والحرية وغيرها لكنهم لم يضيعوا الإيمان فقررت القوة الصليبية العاتية طرد الطبقة الرائدة منهم سنة ١٦٠٩م، فانهال على البلدان الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ربع مليون منهم يجهل معظمهم اللغة العربية ويتسمى بأسماء أعجمية، لكنهم كانوا سعداء بإعلان إسلامهم جهرا وبقى الإسلام في الأندلس ذكرى جماعية في نفوس المسلمين، والصحوة الإسلامية في العصر الحديث هى وليدة المجتمع الأندلسي وتجاربه المريرة.

الجمعيات الإسلامية للوافدين

لقد غاب الإسلام ظاهرا على أرض الأندلس منذ سنة ١٦٠٩م واحتفظ به في القلوب من تبقى من المسلمين إلى أسبانيا وبعد الحرب العالمية الثانية خف هذا الوضع وهاجر عدد من أهل منطقة الحماية الأسبانية بشمال المغرب إلى أسبانيا جنودا مع جيش فرانكو وكان قد وعدهم إن انتصر في الحرب الأهلية أن يعطيهم مسجد قرطبة الجامع ولكنه لم يف بوعده لهم، وإن كان قد بنى لهم ساحة عامة بوسط قرطبة ومسجدا صغيرا مقابل المستشفى للصلاة على موتاهم، وقد أقفل المسجد الصغير المسمى عند أهل قرطبة ب"المورابو" بعد الحرب الأهلية بقليل وأصبح محلا لآليات الحديقة العامة ولم يفتح بعد ذلك إلا للصلاة فقط، ثم تكاثرت أعداد المسلمين الوافدين إلى أسبانيا منذ عام ١٩٦٧م إلى أن وصلت إلى ٢٥٠ ألف مسلم في عام ١٩٩٠، وفي عام ١٩٦٧م أصدرت الحكومة الأسبانية قانونا جديدا تسمح فيه بحرية الأديان وأصبح من الممكن تأسيس جمعية دينية لأول مرة منذ سقوط غرناطة، كما أصبح من الممكن تنظيم جمعية إسلامية من غير الأسبان، ولذلك أسس الطلبة المسلمون غير الأسبان جمعية إسلامية في غرناطة سنة ١٩٦٦م بعد أن اقترح عليهم ذلك الشيخ أبو الحسن الندوي العالم الهندي عند زيارته لأسبانيا سنة ١٩٦٥م، وقد سجلوها رسميا بوزارة العدل الأسبانية تحت اسم " الجمعية الإسلامية في أسبانيا "، وكان معظم أعضاء الجمعية من سوريا وفلسطين وقد تزوجوا من أسبانيات وحصلوا على الجنسية الأسبانية وانخرطوا في الحياة العامة وقاموا بدورهم في طبع نشرات بالعربية والأسبانية كما قاموا بإعطاء دروس إسلامية وإحياء الشعائر الدينية وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام، نعم لقد احتفظ عدد كبير من أهل الأندلس بدينهم الإسلامي سرا، وبعد سنة ١٩٦٠م تجرأ بعضهم على إعلان إسلامه في أسبانيا نفسها ومنهم المحامي حليل بن أمية وقد أسلم في سنة ١٩٦٩م في باكستان وتزوج بمسلمة سويدية ثم هاجر إلى الدانمرك وإلى كاليفورنيا سنة ١٩٩٠م، ولما سئل عن سبب إسلامه قال: " كنت طفلا صغيرا عند احتضار جدتي فجذبتني إليها وهمست في أذني قائلة: " إن الدين النصراني ليس

دیننا ولیس هو الدین الحق فعندما تكبر حاول أن تعرف دینك "، فلما كبرت درست تاریخ أسبانیا وفهمت مقصد جدتي فتعلمت الدین الإسلامي واقتنعت به وأعلنت إسلامي في باكستان حیث أمضیت فیها عامین لأتقن تعلیمي وهكذا أسلم عدد كبیر من الأندلسیین منهم من مكث بأسبانیا ومنهم من هاجر إلى بلاد أخرى.

إلى قرطبة: في سنة ١٩٧٥م مات فرانكو وتوجه إلى بریطانیا ثلاثة من الشباب الأندلسي واعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أتباعه فأمرهم الشیخ عبد القادر بالتوجه إلى قرطبة وتأسیس جالیة إسلامیة بها، وفي سنة ١٩٧٧م توجه أعضاء الجماعة إلى قرطبة واستأجروا بیتا قدیما سكنوا فیه جمیعا مع أزواجهم وأبنائهم وعملوا في مهن متواضعة باعة متجولین لإعالة أنفسهم وحرصوا نساءً ورجالاً في تلك الحقبة على ارتداء الزي الإسلامي وانضم إلیهم عدد من الأسبان زاد على الأربعین، وقد ارتكزت فلسفة الجماعة على كونهم یعیشون في مجتمع كافر یجب الخروج عنه فكان كل من یعتنق الإسلام علیه یترك أهله وعمله لینضم إلى الجماعة، وكان مطران قرطبة حینذاك " مونسئنور اتفانتي فلورید " یدعي إلى التسامح وتشجیع الحوار الإسلامي المسیحي ویستدعي علماء المسلمین للصلاة في مسجد قرطبة الأعظم وبعد مؤتمرات سنویة للحوار كان یحضرها استئذنته الجماعة في إقامة صلاة عید الأضحى سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م بمسجد قرطبة الأعظم فأُذن لهم، وكان ذلك أول نشاط علني عرفت به الجماعة التي انضم إلیها في صلاة العید عدد من العمال المغاربة والباكستانیین وغیرهم، وفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م طلبت الجماعة من مطران قرطبة الأذن لها بإقامة صلاة العید في المسجد الأعظم فرفض المطران هذه المرة الطلب خطیا مدعیا أن ذلك سیؤدي إلى انشقاقات وحتى إلى الفضیحة، وصحب ذلك الرفض حملة ضد المسلمین الأسبان في الصحافة الأسبانیة، ورد أحد ممثلي الجماعة على هذه الحملة قائلا: " لیس الإسلام ملكا للعرب واعتناق الإسلام لا یعني أن الإنسان أصبح عربیا نحن مثلا مسلمون أسبان وهناك مسلمون روسیون ومسلمون فلبینیون وهكذا "، ولذلك فإنه لیست لنا علاقة مع البلاد الغنیة بالبترول إلا علاقة المسلم مع أخیه المسلم ولیس أكثر من ذلك وبعد رفض المطران طلب الجماعة من مجلس قرطبة البلدي بما فیهم أنطونیو توبنا نائب العمدة نكایة في

المطران والكنيسة وتعاطفا مع المسلمين أن يوافق على طلبهم، وألقى أمير الجماعة حينذاك خطبة عصماء قال في آخرها " أصبح مجتمع الكفر في حالة إفلاس ثقافة منحلة وفشل ذريع في الميدان السياسي وأزمة اقتصادية متواصلة أقول للجميع الذين يبحثون بصدق عن سبيل يفضي بهم إلى معرفة ذواتهم ويتيح لهم التعاون مع الآخرين بنفسه، الإسلام هو الأمل المضيء أدعوكم لاكتشاف الحقيقة الإلهية الواحدة، أبشركم بإذن الله تعالى ستعود الأندلس إلى الإسلام وكان رد الفعل قيام حملة صحفية ضد الجماعة دامت شهورا.

جمعية قرطبة الإسلامية: نشأت فكرة تأسيس جمعية قرطبة عند زيارة الدكتور على المنتصر الكتاني في ١٩،١٩٧٣/١١/٢١م في إطار رحلة لتقصي شئون الأقليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا حيث اطلع على موضوع مسجد قرطبة الجامع.

وكان عمدة قرطبة حينذاك " كوزمن رانية " قد طلب في مارس ١٩٧٢ باسم المجلس البلدي القرطبي من منظمة اليونسكو أن تعتبر مسجد قرطبة الجامع أثرا إنسانيا وترجعه إلى أصله الجامع.

كما طلب نائيل كاسستفيون مدير المجمع الملكي الأسباني في ١٩٧٢/١٢/١٠م إعادة المسجد لقيمته الدولية للعلوم والفنون الجميلة، وقدر مصاريف هذا النقل بعشرة ملايين دولار أمريكي، وقد اهتم الملك فيصل رحمه الله تعالى بالموضوع وأرسل مع الشيخ أحمد النعماني رسالة شفوية للجنرال فرانكو في شهر يولية سنة ١٩٧٣م مبديا استعداده لتحمل مصاريف النقل.

ويفهم من هذا أن أهل قرطبة يعطفون على المسلمين وأن من بينهم من هو مسلمون سرا، وفي سنة ١٩٧٩م صدر الدستور الأسباني الجديد محتويا على مادة تتعلق بتنظيم الأديان، وفي ١٩٨٠/٧/٥م، وافق الكورتس على أول قانون لحرية الأديان، وفي نفس العام تأسست جمعية قرطبة الإسلامية حسب القوانين الأسبانية الجديدة، وقد تزعم هذا العمل خايمي سبان الموظف في بلدية قرطبة وهو مسلم متجنس بالجنسية الأسبانية، وهو من

مواليد تطون في ١٩٢٢/١١/١٥م وتسمى باسم "خايمي سبان" وهو يتقن اللغة الأسبانية إتقان أهلها لها، وكان يعرف باسم عبد الحميد بن عبد السلام البلقيني وانتقل إلى قرطبة سنة ١٩٧١تسمى باسم خايمي سيان واندمج في المجتمع الأسباني القرطبي الاندماج الكامل، وهو يحفظ القرآن الكريم وله معرفة جيدة بالمبادئ الإسلامية، وفي عام ١٩٨٠م سجلت الجمعية باسم خايمي سبان التلمساني، وفي نفس العام غيّر الاسم إلى جمعية قرطبة الإسلامية، وفي ١٩٨١/١١/٥م سجلت الجمعية رسميا في وزارة العدل، وقد وافق مجلس قرطبة البلدي على إعطاء مسجد القاضي أبو عثمان لجمعية قرطبة الإسلامية على شرط أن يرمم ويصبح مركز إشعاع إسلامي.

مسجد أبو عثمان: بنى مسجد القاضي أبو عثمان أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في الحي العتيق من مدينة قرطبة على بعد مائة متر من المسجد الأعظم ومساحته ألف متر مربع في شارع يسمى الآن "ري هيربديا "، وعندما احتل النصارى مدينة قرطبة حولوه إلى كنيسة سموها " سانتا كلايا "، ثم باعت الكنيسة البناء العتيق إلى بلدية قرطبة التي تمكمت من التصرف فيه وهو مسجد كبير يحتاج إلى ترميم كبير ومعالمه الإسلامية لازالت قائمة حتى الآن وبه طابقان ومئذنة ويصلح لأن يكون مركزا إسلاميا متكاملا.

وفي صباح يوم الجمعة ١٩٨٠/١٢/٢٦م سلم مفتاح المسجد في حفل بمجلس قرطبة البلدي لرئيس جمعية قرطبة الإسلامي، ثم توجه الجميع إلى المسجد حتى صلوا فيه صلاة الجمعة وأذن من أعلى مئذنة المسجد ولم يعجب ما حدث السلطات الكنسية.

ففي ١٩٨١/١/٦م كتب مطران رسالة مفتوحة إلى عمدة قرطبة يقول: " إن تسليم المساجد والبناءات التاريخية من طريق البلدية لجماعة إسلامية عمل خطير يجعلنا نشعر بتيار إسلامي على مدينتنا قرطبة ".

واتهم المطران الإسلام بأنه يعتقد: " أن الجنة تحت ظلال السيوف "، وقال: " بأن

تشجع الإسلام في قرطبة من طرف السلطات المحلية هو غلط تاريخي وكذلك النزول بالقرطبين من مستوى نصراني رفيع إلى مستوى إسلامي متأخر".

أنا عمتدتك: اتهم المطران عمدة قرطبة والمجلس البلدي بالاستهانة بمشاعر القرطبيين المسيحيين، فرد العمدة على المطران في اليوم التالي برسالة قوية قاسية نشرتها الصحف وقال فيها " إن الدستور الأسباني يحترم معتقدات جميع المواطنين ويحترم حرية العقيدة ولا فرق بين الدين الكاثوليكي والدينات الأخرى أمام الدستور الأسباني "، وقال أيضا " إنه عمدة منتخب ومن واجبه تطبيق الدستور في مدينة قرطبة وإنه سبق لبلدية قرطبة أن ساعدت الكنيسة الكاثوليكية وأصبح من واجبها مساعدة المسلمين "، وقال أيضا: " إنه عمدة منتخب ومن واجبه تطبيق الدستور وإنه انقضى عهد تحكم الكنيسة في الأهالي والدولة بدون رجعة وأن الكنيسة الكاثوليكية ليست في مستوى أخلاقي يسمح لها بانتقاد الإسلام في أسبانيا "، وعن شعور أهل قرطبة قال العمدة: " هم قد انتخبوني عمدة ولم ينتخب أحد من أهل قرطبة السيد المطران مطرانا عليها "، وقال: " إن موقفه وموقف المجلس البلدي هو العدل لمصلحة المدينة وإنه شخصيا لا انحياز له لأي دين إذ أنه ليس نصرانيا ولا مسلما "، وفي النهاية قال له: " أنا عمدتك وأنت لست مطرانيا "، وكان لهذه الجملة في أول الأمر تأثير طيب على الجمعية الجديدة إذ اشتهر وجودها وكثر أعضاؤها من بضعة أفراد إلى خمسين شخصا في بضعة شهور، وأصبحت الصحافة تتكلم عن الجالية الإسلامية في قرطبة كواقع بديهي بعد أن كانت منعدمة وحوربت الجمعية الجديدة من اليمين الأسباني والكنيسة ومن بعض الجمعيات الأخرى.

الرجوع إلى الإسلام: وعملت جمعية الرجوع إلى الإسلام في أسبانيا على ربط الصلة مع جمعية قرطبة الإسلامية فوقعت عدة اجتماعات بين الجمعيتين كانت فيه الأولى على ضم الثانية إليها، وفي ١٩١٨/٥/١م توصلت الجمعيتان إلى توقيع اتفاق تعاون بينهما في غرناطة وهذا نصه:

" بعد البسملة والصلاة على النبي نقسم بالله العظيم وبهذا القرآن الكريم على العمل يدا واحدة على نصرة الإسلام في أرض الأندلس " أسبانيا والبرتغال " وإعادة شريعة الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وألا يخذل بعضنا بعضا وألا يغتاب بعضنا بعضا والله خير شاهد لنا على هذا وهو نعم المولى ونعم النصير ".

ووقع عن الجمعية الأولى أميرها منصور عبد السلام، وعن الثانية رئيسها خايمي سبان كما وقع شاهدان الكاتب والمحامي محمد بن إدريس الحلو من الدار البيضاء وكان على الجمعية الإسلامية القيام بثلاثة أعمال ضرورية هى:

- التوصل إلى اتفاق خطي مع بلدية قرطبة للحصول على مسجد القاضي أبي عثمان وشروط جمع الأموال لترميمه.
- الحصول على مركز مناسب للجمعية.
- استدعاء إمام لتعليم الداخلين في الإسلام أمور دينهم.

وفي ١٩٨١/٧/١٧م قدمت وزارة الثقافة متطلباتها لترميم مسجد القاضي أبي عثمان، وقدمت الجمعية للبلدية دراسة متكاملة لترميم المسجد، وقد أرادت البلدية أن تحدد مدة استعمال المسجد وحق البلدية في استعادته في أي وقت تشاء ولم يتم شئ في ذلك.

لقاء الصداقة: في ١٩٨٢/١/١ نظمت جمعية قرطبة الإسلامية في مركز البلدية بقصر الخليفة القديم بقرطبة " لقاء الصداقة العربي القرطبي "، وأول مؤتمر افتتحه العمدة واشتركت فيه شخصيات عربية وأسبانية وقد افتتح الحفل بتلاوة آيات من الذكر الحكيم وتبعته محاضرات للدكتور علي المنتصر الكتاني وغيره، واعتبر مطران قرطبة هذا العمل إهانة للكاثوليكية وأقام لذلك ضجة في الصحافة.

وفي ١٩٨٢/١/١١م زار الرئيس الجزائري الأسبق السيد أحمد بن بللا وزوجته قرطبة بدعوة من جمعية قرطبة الإسلامية.

وفي أواخر ١٩٨٢م زار المغرب وفد من الجمعية اجتمع بعدة شخصيات رسمية وغير رسمية.

وفي أوائل فبراير ١٩٨٢م زار المغرب وفد قرطبي برئاسة العمدة وزوجته وعضوية خايمي سبان وعدد من أعضاء المجلس البلدي بدعوة من بعض العائلات الأندلسية لشكر العمدة داخل قرطبة على مواقفهم الشجاعة في مساندة الإسلام بها، وألقى انفتنا محاضرة بالدار البيضاء عن قرطبة ماضيها وحاضرها ومستقبلها وكان لها أعمق الأثر كما استقبلت عدة شخصيات مغربية الوفد في بيوتها منهم الدكتور عبد الكريم بالرباط والأستاذ عبد الله كنون بطنجة والحاج إدريس الحلو بالدار البيضاء، وانتهت زيارة الوفد في مدينة فاس حيث بها أهلها.

ثم زار وفد جمعية قرطبة الإسلامية برئاسة سبان بعض دول الخليج واجتمع بالمسئولين فيها من بينهم الشيخ أحمد المبارك رئيس القضاء الشرعي بأبو ظبي دولة الأمارات العربية المتحدة.

وفي يونية ١٩٨٢م افتتحت جمعية قرطبة الإسلامية مركزا لها في شقة مؤجرة بشارع النخيل ساندا وسط مدينة قرطبة بعد أن كان أعضاؤها يجتمعون في بيت رئيسها بعد أن يئست من استرجاع مسجد القاضي أبي عثمان بشروط مقبولة، ثم فكرت الجمعية في استقدام إمام من المغرب يعرف الأسبانية والتربية الإسلامية لتعليم أعضاء الجمعية أمور دينهم وتم لهم ذلك في عام ١٩٨٢م، وكان تأسيس الجمعية مفيدا في إرجاع الإسلام إلى الأندلس، فقد أثبت الوجود الإسلامي لأول مرة في قرطبة واعتنق الإسلام عن طريقها عدد كبير من القرطبيين الذين ظلوا مسلمين بعد فشل الجمعية في التنظيم ما سهل إعادة تنظيم مسلمي قرطبة على أسس أفضل كما أظهر وجود هذه الجمعية القوى القرطبية العاملة المعارضة للإسلام فيها والمساندة له، وقد أسست جمعيات أخرى في غرناطة اشبيلية والمرية ومالقة.

جارودي: في ١٩٨٢/٢/١٠م زار رجارد جارودي قرطبة قبل إسلامه بصفته مدير المركز

لحوار الحضارات واستقبله عمدتها فتحدث جارودي عن قرطبة مركزا للحوار الحضاري وعن إمكانية تأسيس جامعة إسلامية بها، ثم استدعت الجماعة الإسلامية في الأندلس جارودي لحضور المؤتمر الإسلامي الأول للمسلمين الأوربيين الذي عقد باشبيلية في ١٩/٧/١٩٨٥م فحضره وانتخب رئيسا له ثم تابع مفاوضاته من بلدية قرطبة للحصول على المنطقة الحرة التي عرضها على جمعية قرطبة الإسلامية فوافقت الجمعية على تسليمها له لاستعمالها متحفا ثقافيا وقد ساعده في إنشاء المتحف عبد الرحمن موليرة أحد زعماء الجماعة الإسلامية في الأندلس وأول مدير للمتحف.

وافتتح المتحف في مارس ١٩٨٧م بحضور شخصيات إسلامية وشخصيات غير إسلامية من المشرق والمغرب في مؤتمر لحوار الديانات والحضارات، ولم يكن المتحف إسلاميا وإن كانت فيه بعض الظواهر الإسلامية مسجد قرطبة الجامع وقصر الحمراء، وفي مارس سنة ١٩٨٦م اشترت الجماعة بيتا قديما في قرطبة بشارع ري هريديا قرب المسجد الأعظم في شارع مسجد القاضي أو عثمان وحولته إلى مركز إسلامي بعد الترميمات الضرورية وتبنت برنامجا للدعوة إلى الإسلام في قرطبة، وفي سنة ١٩٨٦م فتحت الجماعة مراكز إسلامية في مدن أخرى ومول ذلك بأموال أقطار الخليج.

مسجد المرابطون: في سنة ١٩٨٠م توصلت الجماعة الإسلامية في أسبانيا إلى اتفاق مع بلدية قرطبة حول مسجد المرابطون الذي بناه فرانكو بقرطبة في ساحة حديقة بقرطبة للجنود المغاربة وقد سلمت البلدية المسجد لهذه الجمعية تحت الشروط الآتية:

- يستعمل البناء للعبادات فقط والمقصود العبادات الإسلامية
- تكون كل أعمال الترميم أو التغيير على حساب الجمعية
- يدوم استعمال المركز لخمس سنوات
- على الجمعية الحفاظ على المسجد بحالة جيدة
- يرجع البناء وكل الإصلاحات التي أجريت عليه للبلدية بعد مضي خمس سنوات دون اعتراض من الجمعية وبعد انتهاء المدة استرجعت البلدية البناء، وسلمته في شهر مارس سنة

١٩٨٦م إلى سفير المملكة العربية السعودية بمدريد الذي سلمه بدوره إلى جمعية قرطبة الإسلامية، وبذلك أصبح المسجد مركز نشاط للجمعية الإسلامية في قرطبة.

الإسلام منهج حياة: قررت الكنيسة الكاثوليكية جعل سنة ١٩٨٦م سنة الذكرى السنوية الثالثة عشر لتأسيس مسجد قرطبة الأعظم ونظمت لذلك احتفالات شاركت فيها أوساط ثقافية مختلفة، فقررت الجماعة إقامة مؤتمر بهذه المناسبة تحت عنوان " الإسلام منهج حياة " بهدف التعرف بمركز قرطبة الإسلامي الجديد والمشاركة في ذكرى بناء المسجد الجامع بقرطبة بطريقة إسلامية وجعلها بداية انطلاقة للإسلام وحضر المؤتمر حوالي ١٥٠ شخصا من الأندلس ومن خارجها وقد انتخب الشيخ الحبيب بن الخوجة مفتي تونس الأسبق رئيسا للمؤتمر.

وافتتح المؤتمر بصلاة الجمعة في ١٢/٥ في المركز الإسلامي وتبع ذلك الغذاء ثم محاضرات في أساليب الدعوة في الأندلس والإسلام منهج حياة في الغرب، ثم كونت لجان حول الدعوة والتعليم والشئون المالية والصناعية، وخصص يوم السبت للمحاضرات وانتهى المؤتمر في يوم الأحد بالتوصيات وباجتماع مصغر لمجلس الجماعة بحضور الضيوف غير الأندلسيين.

وكان مؤتمر قرطبة ناجحا على الرغم من هجوم الصحافة الأسبانية عليه التي تخاف من انتشار الإسلام وكان من أهم قرارات الجماعة بعد المؤتمر: جعل قرطبة عاصمة للجماعة الإسلامية في الأندلس بدلا من أشبيلية، وفي ١٩٨٧/١٢/١٥م افتتح رجاء جارودي اللقاء العالمي الإبراهيمي في المتحف الذي أقامه في القلعة الحرة، القلعة الإسلامية على ضفة الوادي الكبير بقرطبة والتي قدمها له البلدية لهذا الغرض، وقررت الجمعية متابعة ذلك المشروع الذي أسس بأموال إسلامية.

ثم قررت الجماعة إرسال بعثات من شبابها إلى البلاد الإسلامية لتكوين أطر تعليمية من الأندلسيين أنفسهم وهكذا وقع اتفاق بين الجماعة وبين رابطة العالم الإسلامي بمكة

المكرمة لإرسال وفد من الشباب الأندلسي في شهر رمضان عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٧م إلى الديار المقدسة وتنظيم حلقة تعليمية لهم مع إقامة شعائر العمرة وزيارة مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم وذلك بتمويل من الرابطة.

وقد تطوع عدد من أساتذته جامعة الملك عبد العزيز بجدة للإسهام في هذا النشاط، وفي ١٩٨٧/٥/١٠م شارك حزب التحرير الأندلسي في الانتخابات البلدية في الأندلس ففاز بثلاثة مقاعد في مدينة الجزيرة الخضراء من مجموع ٢٤ مقعدا وبعد هذا النجاح قررت الجماعة فتح مركز إسلامي لها في الجزيرة الخضراء.

وفي ١٩٨٧/٧/١٠م تقدم الحزب لانتخابات البرلمان الأوروبي فحصل على ٩٨٨١ صوتا، وقد برهنت هذه النتائج على أن الأفكار الإسلامية لها صدى في المجتمع الأندلسي ومساندون على الرغم من ضعف الإمكانات.

وقد تابعت الجماعة نشاطها الثقافي والإعلامي منذ يونيه سنة ١٩٨٧لأن احتلال قرطبة في الذاكرة الأندلسية هو مثال تاريخي للتعدي على شعب بالقوة وإزاحة الحضارة الإسلامية لمدة ٧٥١ سنة وإحلال الثقافة النصرانية محلها، وأن المكوث هو التركيز ٢٤ ساعة على السلام والحوار بين الشعوب وبرهنة أن الفكر الأندلسي هو دائما فكر تعاون وسلام وإننا مستعدون لمد أيدينا لأي جماعة من أي جنس أو دين، وقام المسلمون بالصلوات الخمس جماعة وقررت الجماعة معارضة الاحتفالات بسقوط المدن الأندلسية في كل مدن الأندلس، وصرح المسلمون من العبث أن تحضر شخصيات أندلسية هذا الاحتفال الذي هو: " عمل كاثوليكي عسكري يحتفل بذكرى مذبحة أهل أشبيلية للمسلمين ".

وفي ١٩٨٧/١١/٤ يوم ذكرى الأندلس نظم حزب التحرير الأندلسي والجماعة الإسلامية في الأندلس مظاهرة سلمية في قرطبة فاجتمع المتظاهرون في ساحة كولون في الساعة الثانية عشرة ظهرا حاملي الأعلام الأندلسية واتجهوا نحو المسجد الجامع وساندت منظمات أخرى هذه المظاهرات فنجحت بذلك الجماعة في أن تتزعم الحركة الأندلسية.

بعثات ومظاهرات: في فبراير سنة ١٩٨٨م بدأت الجمعية في إرسال بعثات طلابية لتعليم الإسلام واللغة العربية في البلاد الإسلامية فأرسلت أول بعثة من خمسة طلاب إلى الجامعة الأردنية لمدة سنتين ونصف وكان اثنان منهم من قرطبة ثم توسع هذا البرنامج حتى أصبح عدد المبعوثين يقارب الأربعين إلى عدة بلاد عربية وغير عربية، كما قامت الجماعة بتنظيم مظاهرات في مدن الأندلس لمساندة الانتفاضة الفلسطينية.

وفي الحقبة من ١٥،٢٢/٤/١٩٨٨م أقيمت مظاهرات في مركز قرطبة الثقافي حضرها عدة آلاف من الأشخاص ولمدة أسبوع كامل.

وفي هذا الشهر أيضا اشتركت الجماعة وحزب التحرير الأندلسي في قرطبة في مظاهرة ضد النفايات النووية في المنطقة القرطبية.

وفي ٢٩/٦/١٩٨٨م وبمناسبة سقوط قرطبة طلبت الجماعة من مطران قرطبة الإذن بإقامة الآذان وصلاة المغرب والخطبة في داخل المسجد فرفض المطران بحجة أنه لا يمكن أن يسمح بصلاة غير نصرانية في كاتدرائية كاثوليكية ولكن الجماعة رأت أن هذا القرار باطل فقرروا إقامة الصلاة في الشارع أمام المسجد، وفي الأسبوع ١٥،٢٢/٦/١٩٨٨م قامت جماعة الجزيرة الخضراء بأول نشاط لها على المجال الأندلسي وهو تقديم معرض صوتي وبصري حول مدينة الزهراء وتاريخها وآثارها، وبهذا النشاط ابتدأ المركز الإسلامي بالجزيرة الخضراء سلسلة من النشاط الثقافي كما تعددت أوجه النشاط كما أخذت الجماعة في تقوية علاقاتها خارج أسبانيا وداخلها.

- في خارجها بإقامة روابط الأخوة بالجمعيات الإسلامية بصفة عامة وبالشتات الأندلسي خارجه.

- أما في الأندلس فبالتعاون مع كل القوى الأندلسية بصفة عامة وبالجمعيات الإسلامية بصفة خاصة.

كما أن الجماعة قد أخذت في تأسيس مراكز أبحاث ونشر مجلات في كثير من الأماكن، وفي ٤/١٢/١٩٨٨م احتفل المسلمون بيوم الأندلس على عادتهم بتنظيم مظاهرة

انطلقت من ساحة كولون بقرطبة إلى المسجد الجامع ونشروا منشورا بعنوان " من أجل حريتك يا أندلس " وشارك في المظاهرة عدة مئات من المسلمين ومن المتعاطفين معهم، وفي سنة ١٩٨٩م كلفت الحكومة الأسبانية الجامعة بالمشاركة في تعليم العاطلين عن العمل ونجحت الجامعة في إعطاء دروس للمئات من العاطلين بتمويل من الدولة في مراكزها ومنها مركز قرطبة والجزيرة الخضراء في اختصاصات مختلفة منها تعليم اللغة العربية كلغة من اللغات القومية الأندلسية لكونها لغة الأندلس لكونها لغة الأندلس القديمة، وفي عام ١٩٨٩/٧/١٤م اعترفت اللجنة الاستشارية بالحرية الدينية في أسبانيا بالإجماع بالإسلام كدين له جذور أسبانية وثيقة.

وذلك يعني حصول المسلمين على نفس المساعدات التي تحصل عليها الأديان الأخرى، على شرط أن توحد جميع الجماعات الإسلامية في أسبانيا في اتحاد للتعامل مع الحكومة وفي نفس الشهر أسست الجماعة في قرطبة مركزا للدراسات الأندلسية ومجلة لام الف وهى مجلة إسلامية علمية ذات مستوى رفيع تقدم باللغة الأسبانية أبحاثا أندلسية إسلامية ومواضيع تهم الحاضر والتاريخ والهوية الأندلسية، وقد عقد المؤتمر الأندلسي الأول في قسطلة في ١٩٨٩/٩/١م انتهى بتأسيس مجلس أندلسي يجمع بين أهل المهجر وأهل الأندلس، وحددت له مهام تقوية الثقافة الأندلسية في المهجر وسط أبناء السلالات الأندلسية بإخوانهم في الأندلس وفي الحقبة ١٩٩١/٥/٥،٣م أقامت الجماعة بمركزها بقرطبة مؤتمرا للحوار الديني من عدة ديانات أسبانية وقد حضره عدد كبير وكان مناسبة مهمة لتقديم الإسلام للحاضرين، وقد شارك في هذا المؤتمر ممثلون عن النصرانية واليهودية والبوذية والراهيمية والزرادشتية، وفي ١٩٩١/٧م فتحت الجماعة مركزها الثامن جنوبي قرطبة، وبذلك أصبحت الجماعة الإسلامية في الأندلس أهم جماعة منظمة في أسبانيا وبدون عون يذكر من العالم الإسلامي على الرغم من وجود الكثير من المثبطات والعراقيل.

وهكذا نجد أن قرطبة بدأت تأخذ دورها الإسلامي في العصر الحديث، ونرجو من

دول العالم الإسلامي أن يمدوا أيديهم إليها وإلى المسلمين في جميع أنحاء العالم حتى يحققوا وظيفتهم في هذه الحياة بالدعوة إلى الله على بصيرة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فبذلك يرضى الله عنهم في الدنيا والآخرة ولمثل هذا فليعمل العاملون.

المراجع

١. الإسلام في إسبانيا- د. لطفي عبد البديع- مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة- ١٩٨٩.

٢. الأمة- د. علي المنتصر- العدد ٣١ الطبعة الأولى- جمادي الآخر ١٤١٢هـ.

٣. التاريخ الأندلسي- د. عبد الحي علي الحجي- دار العلم الرياض الأولى.

٤. الصحوة الإسلامية في الأندلس جذورها ومسارها- د. علي المنتصر الكتاني.

٥. القيم البنائية في التراث المعماري الأندلسي- د. السيد عبد العزيز سالم- كلية الآداب إسكندرية.

٦. تاريخ الإسلام- د. حسن إبراهيم حسن- دار إحياء التراث العربي بيروت المجلد الأول والثاني.

٧. ظهر الإسلام الجزء الثالث- أحمد أمين- دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الخامسة.

٨. قرطبة درة مدن أوروبا في العصور الوسطى- د. حسين مؤنس مدير معهد الدراسات العربي / الكوفي /عدد أكتوبر ١٩٦٦.

٩. قرطبة في التاريخ- د. جودة هلال ومحمد أحمد محمود صبيح- المكتبة

الثقافية العدد ٧٢- نوفمبر ١٩٦٢- وزارة الثقافة مصر المعلم.
١٠. مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري- تأليف كليليا سارتللي تشركوا الطبعة الأولى- لجنة البيان العربي.
١١. مدينة المسلمين في إسبانيا- تأليف جوزيف بال- مكتبة المعارف الرباط الطبعة الثانية- ترجمة د. محمد تقي الدين الهلالي.
١٢. معجم البلدان- للإمام شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي- دار صادر- ١٤٠٤/١٩٨٤.
١٣. مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام- للأستاذ محمد عبدالله عنان الطبعة الرابعة- مؤسسة الخانجي القاهرة.
١٤. نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب- الشيخ أحمد بن محمد المقري المجلد الأول.
١٥. نماذج من التحف- د. السيد عبد العزيز سالم- كلية الآداب إسكندرية.
١٦. هياج الربض- د. أحمد إبراهيم الشعراوي- كلية الآداب إسكندرية.



الفهرس